

إسلامية محمد بن سوي



قطوف من ثمار الأدب العباسي

رؤية فنية

مختار

محمد حامد شريف
أستاذ الأدب والنقد بجامعة الأزهر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



شعاع من كتاب الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ
الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ
كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا
بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾

صدق الله العظيم

د. أحمد الزمر

تقديم

الحمد لله تتنسم أرجها النفوس الصافية ، وتترسم خطاها
الأرواح السامية وأصلى وأسلم على منبع البيان ، ومهيع
العرفان ، والمؤدب بالقرآن سيدنا وملائنا محمد بن عبد الله ،
حامل أعلام البلاغة ، ورافع ألوية الفصاحة ، ومشذب شجرة
الأدب ، ومهذب لغة العرب ، وعلى آله وأصحابه الذين ارتشفوا
من رضاه، واشتقوا من أدابه ، فكانت منهم وبهم خير أمة
أخرجت للناس ، وبعد :

فهذه قطوف من ثمار الأدب العباسي الثاني سلكت فيها منهجا
حددت معالمه واقتنعت به فكانت أكشف عن المزايا أو العيوب
في حيدة تامة وروية فنية فكشفت اللثام عما يتوارى خلف
الأنفاظ كما حرصت على أن أوضح صلة النص بالبيئة
والمناسبة التي قيل فيها ومدى انعكاس شخصية الشاعر ونفسيته
على النص ، كما عرضت للعاطفة من حيث الصدق والكذب ،
وكذا الأفكار من حيث الوضوح أو الغموض ، والإبداع والتقليد
وانعكاس ذلك كله على الأسلوب والصور البيانية .

وقد سلكت في دراستي هذه طريقة لاهي بالموجزة المختلة ولا
بالطويلة المملة ، لتكون للطالب المتوثب معلما ومنارة على
طريق البحث والاستنباط ، وهي مهمة لا أظن أن أحدا يبلغ فيها
الحظ الأوفى ، إلا بعون من الله عز وجل .

إذا لم يكن عون من الله للفتى . . . فأول ما ثجنى عليه مواهبه
﴿ وما ثوبيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾

دكتور: / محمد حامد شريف

الفرض من مواصلة النصوص الأدبية

الحق أن الاحتفال بالنصوص الأدبية يعنى الاحتفال بعلوم شتى ، فالنصوص الأدبية : إنما تتناول كل جوانب الحياة وأحوال الأحياء ، نرى فيها شخصية للشباب المغامر ، وشخصية الشيخ المجرب ، والمعالي الحازم الحكيم نرى فيها حالات الرضا والسخط وحالات التصوف والابتذال كما نراها فى حالات الروية والارتجال .

والفرض من دراسة النصوص الأدبية أن يتأمل الدارس فى هذه الحلة التى نسجها صاحب النص فيتذوق ما فيها من جمال المعنى وجلال الفكرة ودقة الخيال وروعة البيان ، وأن يرجع بصره كرتين ليرى ما وراء المعنى والفكرة وما خلف الخيال والأسلوب من مذهب أدبي يتمذهب به صاحب النص أو مدرسة فكرية يدافع عنها أو دين يدين به ، أو حالة نفسية تغمره أو غير ذلك .

وللتأمل أو إتمام النظر فى دراسة النصوص والتروى فى فهمها لهو أمر هام ، فكم من مار بروضه لا ينشق عيبرها ! وكم من مبصر لرياض متقاوثة للحسن ولا ينجى وردها وزهورها !

فهر يتقل من هذه إلى تلك وقد استوى لديه منظر هذه وتلك !! فما يحس بفارق بينهما ولا يهتدى إلى ما يميز إحداهما عن الأخرى ، إذ كان نظره نظير العابر ، فالتفت به سذاجة المشاهدة إلى أن يكون مدى حكمه أن كل منهما روض جميل !!!...

إن دراسة النصوص الأدبية ، لمهى الطريق الأمثل لتربية الملكات وخلق الذوق وتنميته بقدر ما يوجب الأديب من قريحة قادرة على الاستيعاب أولاً ، وطلاقة التعبير ثانياً وما لمضيق الوقت الذي يبذل من أجل الدراسات الأدبية ، وما أهونها إذا كانت للغاية منها أن تكون زاداً للامتحان أو مادة يمسأ بها المؤلفون فراغ مؤلفاتهم متوخين فى ذلك تقديم نماذج لأتبه الأدياء أو الكتاب فيقرؤها الدارس مضطراً بغير روح تهديه أو حب ينفعه أو تنوق يستمتع به فإذا ما خرج من قاعة للدرس خرج معه ما تصوره ولا يبقى منه شيء جل أو هان

ممخل فى قيام المولة العباسية :

المتتبع لحوانث التاريخ يجد أن ثورات الشعوب لا تقوم إلا بعد فساد الحكام ؛ لأن فساد الحكام ينشأ عنه ضعف القوانين ، وضعف الأخلاق فتنتشر الرشوة وتتحل الروابط وتتخور العزائم كما تسود الميوعة الجماعية والفرار من المسئولية وتسبوء استخدام السلطة ، ويستسلم الضعيف . . . والحكومة الفاسدة قد تطول وقد تقصر ولكنها على كل حال سائرة إلى زوال .

وقد كان هناك عوامل لسقوط الدولة الأموية أهمها :

- ١- وراثة الحكم الذى ابتدعه معاوية بن أبى سفيان لم يقصر الخلافة على أبنائه مما حرك للفتن والاضطرابات .
- ٢- وقد ابتدعوا النظام الثنائى الذى يقوم على اختيار رجلين من أسرة للخليفة أحدهما لمصلى والأخر لاحتياطي معاً أدى إلى لتقسام للبيت الأموي ولحدث بينهم صراعاً على الحكم .
- ٣- كثرة الأحزاب المطالبين بالحكم ومنهم للخوارج والشيعية والزيبريين ولكل حزب أصوله وشعاره للمناصرين له .
- ٤- تعصب بنى أمية للعرب والعربية ضد الموالى فى كل حكان

٥- ضعف الخلفاء وانصرافهم عن مصالح الأمة وانغماس بعضهم في الشهوات والترف والمجون .

٦- أساء بنو أمية معاملة الشيعة وكانت أكبر الحركات عملاً لإنهاء حكم بني أمية وقد قامت دعوتها على أن يكون الحكم لأبناء الإمام علي - كرم الله وجهه - ولكن بعض أئمتهم أوصى بأن تكون الخلافة لمحمد بن عبد الله بن عباس عم النبي (ص) وعملوا على تحقيق ذلك بكل الوسائل وإن تصنع أحياناً بالدعوة للعلويين فكانوا يستجلبون الشعراء ليمدحهم ، وكان بعض الشعراء يعرض بأولاد علي بن أبي طالب وينفون عنهم أحقيتهم للخلافة من دون العباسيين ؛ لأن أبناء علي في نسبتهم إلى النبي (ص) ينحدرون عن طريق ابنته فاطمة - رضي الله عنها - وأما بنو العباس فإنهم أبناء عمومة ، ومن ذلك قول منصور النميري يمدح أحد الخلفاء ويعرض بالعلويين :

وإن قالوا بنو بنت فحق ••• وردوا ما يناسب للذكور
وما لبني بنات من تراث ••• مع الأعمام في ورق الزبور

وظل المناصرون لبني العباس جاهدين لتحقيق هدفهم بكل الوسائل ، فاستعانوا بالرجال الأقوياء وعلى رأسهم "أبو مسلم الخراساني" (ناصر الموالى) الذي استطاع بقوة وسعة حيلته أن يستولي على خراسان ثم سقطت البلاد في يده واحدة إثر الأخرى ، حتى سقط آخر خلفاء بني أمية وهو (مروان بن محمد) بعد معركة عنيفة في موقعة (الذئاب) التي عرق فيها عدد كبير من جيشه في نهر الذئاب ولم يصبر أمام جيش السفاح ففر إلى مصر فقتل بقرية بوضير بالجيزة ١٣٢هـ وبقتله انتهت خلافة بني أمية وألقت الخلافة إلى بني العباس (عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس) للقتال على منبر الكوفة

أنا السفاح المبيح والثائر المبيد ، فكان أول خليفة عباسي^(١) ،
وامتدت رقعة الدولة العباسية من نهر السند إلى المحيط
الأطلسي ، كما امتد حكمهم حوالي خمسة قرون وربع قرن
حتى سقطت بغداد في أيدي المغول سنة ٦٥٦ هـ ، وقد قسم
المؤرخون العصر العباسي ثلاثة عصور :

العصر العباسي الأول وهو يبدأ من قيام الدولة سنة ١٣٣ هـ
وينتهي باستيلاء بني بويه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ
العصر العباسي الثاني : ويبدأ من السنة المذكورة ٣٣٤ هـ والتي
وافقت خلافة المنطليح (أبو القاسم الفضل بن المقتدر) وقد خلع
نفسه ببغداد سنة ٣٦٣ هـ وينتهي هذا العصر بسقوط بغداد في يد
التتار عام ٦٥٦ هـ . وهناك من يجعل العصر الثاني عشرين
الأول من سنة ٣٣٤ هـ وينتهي بحكم السلاجقة الأتراك سنة
٤٤٧ هـ .

والآخر : يبدأ منذ تولى السلاجقة للحكم حتى سقوط بغداد في
أيدي المغول التتار سنة ٦٥٦ هـ .

وانقسمت الدولة الإسلامية في العصر العباسي للثاني دويلات
واستقلت كل منها بشؤونها الداخلية وإن كان بعضها مازال
يعترف اعترافاً رسمياً بالخليفة العباسي ، وهذا الانقسام الذي
ألت إليه الدولة وإن أضعفها من الناحية السياسية فإنه أفادها من
الناحية العلمية ، فقد جعل كل دولة تسابق الأخرى في تشجيع
العلماء والعمل على النهضة الأدبية كما حدث للكتاب على
التأليف .

فالدولة المملوكية: في تركستان وخراسان كان من أشهر
ملوكها نوح بن منصور الذي أنشأ في بخاري مكتبة كبيرة لتتبع
بكتبتها كثير من الناس.

^١ - راجع للمؤلف ج/١/٢٧٨-٢٧٩ لابن عبد ربه والاعتدال في الألب العربي د.
محمد حامد شريف ص ٩ وما بعدها .

والدولة البويهية : غنى العراق وخراسان وفارس ، كان أكثر وزرائها من الأدباء المشهورين كابن العميد والمصاحب بن عباد ومن أشهر ملوكها عضد الدولة ابن بويه الذي ألف له أبو إسحاق الصابي كتاب التاجي في أخبار بني بويه ، وألف له أبو علي الفارسي كتاب الإيضاح في النحو .

والدولة الحمدانية : في حلب والموصل ، كانت قبلة الأنظار ومحاذ رجال الأدب ومن أشهر رجالها سيف الدولة ابن حمدان الذي غص مجلسه بكثير من العلماء والشعراء والأدباء وفي مقدمتهم المتنبّي وابن خالويه النحوي وأبو فراس الحمداني .
والدولة الإخشيدية : في مصر ودمشق وكلمة إخشيد من القاب الأمراء عند قدماء الفرس وقد منح للخليفة الراضي عام ٣٢٦هـ هذا اللقب على مؤسس هذه الدولة "محمد بن طغج" وتوفي الإخشيد في آخر عام ٣٣٤هـ - ٩٤٦م وقد خلفه اثنتان من أبنائه ولكنهما لم يحكما إلا بالاسم فقط ، فالسلطان الحقيقي كان في يد العبد الخاص الحيشي كافور الذي ولاه الخليفة على مصر بعد وفاة ولدي الإخشيد .

والدولة الفاطمية : في مصر قد أنشأت داراً للكتب وأنشأت للجامع الأزهر وجعلته مدرسة تقوم على نشر المذهب الشيعي وكانت لهم عناية خاصة بالفلك .

والدولة الأيوبية : التي خلفت الدولة الفاطمية في مصر والشام وقد عملت من جانبها على نشر مذهب أهل السنة والقضاء على مذهب الشيعة إلا أنها زادت عن السابقين في تقريب العلماء إلى مجالسها والإغراق عليهم .

وهكذا تفقت السلطان العريض وصارت الدولة العباسية في أولها غيرها في أولها ، صارت لفظاً على غير معنى !
الكل طامع وللكل متطلع إلى الإمارة والظروف مساعدة على التمييز والتفريق والفساد يلد الفساد والأطماع تحرك الأطماع ،

لكن أمرين جليبين بقاء ، لم يتفرقا ولم يتمزقا هذان الأمران هما
العقيدة واللغة فقد بقى المجتمع العربي تعلوه كلمة الإسلام
وتقوده عقيدته وإن كثرت في بعض جوانبه انحرافات ، وكذلك
بقيت هذه الدول والإمارات في المشرق والمغرب تغار على
اللغة الفصحى ، وتتخذها لغة الدولة والحكم والإمارة ^(١).

الشاعر الطموح : أبو الطيب المتنبي

اسمه ونسبه ونشأته :

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار الجعفي
الكندي الكوفي ، وجعفي جد المتنبي ، وكندة محلة بالكوفة
وليس كندة القبيلة كما ظن بعضهم خطأ .

وكان والد المتنبي يعرف بعبدان السقاء يمضي الماء لأهل المحلة
وقد هجاه ابن لكتك البصري لما سمع بقدمه بغداد رجعا من
مصر فقال :

لكن بغداد جاء الفريث ساكنها • نعالهم في قفا السقاء تزدهم

وقال شاعر آخر :

أي فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بكرة وعشياً

عاش حيناً يبيع في الكوفة الماء • وحيناً يبيع ماء المحيا

وروي أن والد المتنبي سافر به إلى الشام وتقتل به بين
حضرها وبانديتها ومدرها ووبرها وردده في القبايل .

وكان مولد شاعرنا بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ ٩١٥ م في حي كندة وقد
فتح عينيه على أمرين مؤلمين أحدهما ضعة نسبه ، والآخر :

^١ - راجع الاختصار في الأدب العربي ص ١٢ وما بعدها .

فخر أسرته فهو إذن ليس ممن كثر بآبائهم وأموالهم وأهلهم بل
إنه عصامي صميم وكان أبوه سقاء ١ ولذلك عثره أعداؤه
وخصومه من الشعراء والأدباء بمنتبه للوضيع وأكثروا من
تذكيره بوصمته وقد أسرفوا في هذا الباب بما لا يسمح به الأذنب
الذي ينتسبون إليه فمن ذلك قول الحصين بن الحكم : للمذكور
وقوله أيضا : "متببكم ابن سقاء كوفاني ، ويوحى^{الجب} من الكنيف
إليه " ١ .. وكأني بأبي الطيب يعترف بذلك للعب لكنه لا يراه
مما يفض من القدر أو يحط من الكرامة وذلك حين يقول في
أرجوزته التي قالها عند عضد الدولة (١) :

فخر الفتى بالنفس والأفعال • من قبله بالعلم والأخوال

وحين يقول في رثاء جنته :

ولو لم تكوني بنت لكرم والد • لكان أباك الضخم كوثلي أما

وحين يقول :

ولست بقانع من كل غصن • بأن أعزى إلى جد همام

وحين يقول في صباه :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي • وبنفسي فخرت لا بجسودي

وهكذا كان يدفع عن نفسه في مهارة وإن حمل بدخله المرارة

بيد أن ذلك لم يضعف من عزمه للموروث عن أبيه ، فقد كان

أبوه جلدا لا يعرف اليأس ، طموحا لا توصد دونه الأبواب .

والمتنبي عربي الأصل "وقد عرف عن نفسه في إحدى قصائده

بقوله : "الفتى العربي" وهو من المتعصبين للعربية ويفخر

١- راجع أبو الطيب بقلم محمد كمال حلمي بك ، وديوان المتنبي للبرغوثي

بهذه النسبة شأن أمثاله الذين أرادوا أن يظهرُوا في وقت مباد فيه الأعاجم وتولوا مناصب الدولة وصيفوها بالصيغة الفارسية والتبري للعرب من يدافع عنهم ويرد حملات خصومهم ، ومن هؤلاء أبو الطيب علي ما يظهر من قوله:

وإنما للناس بالملوك وما * * * * * ثقيل عُرْب ملوكها عجم
لا أدب عند هم ولا حسب * * * * * ولا عهود لهم لا نسم^(١)
قد عرف المتنبي منذ الصغر بذكائه المتوقد وحافظته اللاقطه ،
فقد روي أن أبا علي الفارسي سألَه عن الجموع التي تجيء
على وزن فعلى بكسر الفاء وسكون العين وفتح اللام فأجابَه
بأنهما جمعان فقط (ججلي وظزبي) والأولى: وأحدثها الحجة
بفتح الحاء والجيم وهي طائر ، والأخرى وأحدثها ظزبان بفتح
الظاء والباء وكسر الراء ، وهي دويبة منتنة الرائحة قال أبو
علي الفارسي : سهرت ثلاث ليال أبحت عن مثال ثالث لهذا
الجمع فلم أجد^(٢)

وروي أحد الوراقين أنه جاء للمتنبي بكتاب من نحو ثلاثين
ورقة ليبيعه لياه ، فأخذ أبو الطيب الكتاب وأقبل يراجع صفحاته
فلما ملَّ صاحب الكتاب استعجله قائلاً : يا هذا لقد صطلتني فإن
كنت تبغي حفظه في هذه المدة القصيرة فذلك بعيد عليك ، قال
المتنبي : فإن كنت حفظته فمالي عليك ؟ قال الرجل : أصطيكه -
قال الوراق : فأمسكت الكتاب أرجع صفحاته ، والغلام يثلو ما
به حتي انتهى إلى آخره ، ثم استلبه فجعله في كمه ومضى
لشأنه^(٣)

١ - المرجع السابق من ٢/٣٧/١٩٢١م

٢ - مقدمة الوساطة بين المتنبي وخصومه ش/أحمد عارف/ي

٣ - مقدمة ديوان المتنبي ش البرزوقي/٢٣

لماذا لُقِّبَ بالمتنبى؟^١

أرى أن هذا السؤال هو الذي أوجس إلى كثير من الناس قصة المتنبى ، أرادوا أن يفسروا هذا اللقب - وتفسيره يسير - المتنبى في اللغة من يدعي أنه نبي وكثيراً ما نرى الناس يخلقون قصة لتفسير اسم مدينة أو قبيلة ، فلم تكن قصة المتنبى عند المتنبى إلا من هذا القبيل ، والرجل كثير الأعداء والحساد ، والذي يمسر لهم هذا الادعاء أن الرجل قد دعا الناس دعوة وقال كلاماً فسجن ، وشاع أمره فجعلوا هذا السجن من أجل المتنبى ، وذاعت الرواية على مر الزمان ، قال للتحالبي : حكى أبو الفتح عثمان ابن جني قال : سمعت أبا الطيب يقول : إنما لقبت بالمتنبى لقولي :

أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

وهو يقول في القصة نفسها :

ما مقامي بأرض نخلة إلا • كمقام للمسيح بين اليهود
فقد شبه نفسه بالأنبياء مرتين في قصيدة واحدة فلقبه بعض
حصاده "المتنبى" فذاعت ، ثم وضعت القصة ، ولحاجت النبوة
قرناً فرووا له قرناً^١ قال أبو علي بن حامد سمعت خلقاً جحلب
يحكون : أن أبا الطيب تنبأ ببائية مسموعة (وهي بين الشام
والكوفة) ونولحها إلي أن خرج إليه (لؤلؤ) أمير حمص من قبل
الأخشيدية فقاتله وأسره وشرده من كان قد اجتمع عليه من بني
كلب وغيرهم من قبائل العرب ، وحبسه دهرًا طويلاً حتى رجع
إلى الإسلام فطلقه ، وكان قد تلا على البوادي كلاماً زعم أنه

^١ - راجع ذكرى أبي الطيب المتنبى بعد ألف عام من ٦٣-٧٥ د/عبد
الوهاب عزام

قرآن أنزل عليه ومن ذلك : (والنجم السيار والفلك الدوار ،
والليل والنهار إن الكفار لفي أخطار) (١) .
وقيل إن سبب تسميته بالمتنبي ، أن قوماً قالوا له : إن هاهنا
خالقة صعبة فإن ركبته علمنا بأنك مرسل ، فتحايل يوماً إلى أن
ركبها فنفرت ساعة ثم سكنت وورد الحي وهو راكبها ، وقيل :
إنما سمى متنبياً لنبوغه وفطنته (٢) وقد مر بنا رأي ابن جني
في سبب تلقيبه بالمتنبي وهو قوله :
أنا في أمة تداركها الله — غريب كصالح في ثمود
يقول الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي " ذلك رأي نميل إلى الأخذ به
فواضح من قصيدته في الاعتقال ومطلعه :
أيا خذ الله ورد للحدود * وقد قدود الحسان القدود

إن التهمة التي ألصقت بالمتنبي لم تكن ادعاء النبوة ، وإنما
كانت دعوى أخرى تمشف عنها العقيدة ، ويعترف بها الشاعر
ولا يحاول إنكارها وهي اتهامه " بالعدوان على العالمين " أي
بالخروج على السلطان ، ويصح أن يكون السبب هو ذلك
البيت :

ما مقامي بأرض نخلة إلا * كمقام المسيح بين اليهود
وليس أيسر من أن يسمع حاسدوه هذا الشعر فيلقبوه بالمتنبي
وفي أيامنا هذه من أمثال ذلك كثير في الصحف والمجلات ، فإذا
أطلق عليه هذا اللقب ومرى في الناس ثم مضت مدة استطاع
أصحاب الخيال القصصي أن يخلقوا قصة طريفة يفسرون بها

^١ - راجع تاريخ الأديب العباسي الثاني د. أبو الخشب
^٢ - راجع الوسائط بين المتنبي وخصومه ص/ك

هذا اللقب ويستندون فيها إليه إدعاء النبوة (١) وقد انتهز خصوم المتنبي فرصة القبض عليه ، وأرادوا التشنيع عليه بدعواه للنبوة مخبرية به وصرفاً للمعجبين به من المتدينين .

وأرى براءة شاعرنا مما اتهم به إذ لا يعقل أن إنساناً في ركباجة عقله يدعي النبوة في وقت رسخت فيه قواعد الإسلام وأصوله في قلوب المسلمين وكيف ينسب إليه هذا وقد كان يضيق ذرعاً بكل من يلقيه بهذا اللقب ؟

والجدير بالذكر : أن لبعض الباحثين في دعواه آراء هي (٢) لا تعدوا أن تكون انحرفاً مذهبياً أو معارضة سياسية وتشير إلى بدعوى العلويين ولحققتهم بالخلافة وتطلعا من المتنبي إلى ول

ولعل ادعاء النبوة التي قام بها المتنبي كانت جولة من جولات المصروعين ، أو من قبيل جنون المتطيرين الناقمين على العالم وما فيه ولعل لقوله في الفخر وتعالى على الأمراء كانت نوبة من جنون العظمة والكبرياء ، والدكتور زكي المحاسني يلقي باللوم على المتنبي وقد أحاط نفسه بجملة من الأسباب التي دفعت من حوله لأن يرمونه بالبهتان ، فيقول : (٣)

فلولا التعاطف الذي ظهر به علي القوم حقيماً ونازحاً متودداً إليهم أو داعياً إلى تكتل وانتلاف بين العرب عامة لما هاجوا عليه لقد نعموا منه أن ادعى النسب العلوي وتشبث به ثم زين له ذكاه وكبريائه أن يشبه نفسه بالأنبياء والمرسلين حين تهجم له شائنته وحساده فقال :

أنا في لمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

١- ديوان المتنبي للبرقوقي ص ٢٩

٢- راجع للصباح المتنبي ليوسف البندمي

٣- زواج الفكر المتنبي د/ زكي المحاسني ص ٢٩

وما لبث أن خُيِّل إليه أنه أرفع من الملوك والكبراء فقال :
وفؤادي من الملوك وإن كان لسانني يرى من الشعراء
وكان طموحه وأمله يجتمعان مع ثورته على المنافقين والملففين
فيجد نفسه أفضل منهم ، ويخاطر في مطلبه بالمهج الجسم
فيقول :

أي محط ارتقي * أي عظيم لثقي ؟
وكل ما خلق الله وما لم يخلق
محتر في همتي * كشعة في مفرقي
وربما كان سجنه لمحض خروجه على الدولة ، وقد شُبَّ إليه
أنه انتَهز فرصة ضعف الدولة ودعا إلى بيعته قوماً من أبناء
سنه فيبيعوه ، فالحيث على هذا لم يكن إلا لدعوة سياسية وهذه
الناحية - في رأيي - هي التي تهّم كل حاكم في المقام الأول .

شاعرية أبي الطيب المتنجي :

المراد بالشاعرية تلك الطاقة التي يملكها الشاعر في نفسه
ويحكم فيها عندما تدفعه العواطف وتلح عليه الخواطر ،
فيصور أحاسيسه ويجسم معانيه ، ويقدر ما تكون هذه الطاقة
من الخصوبة والإجادة والمطاوعة والاستجابة والوعي والثقافة
والتوثيق والطموح والصقل والصفاء والفهم والإدراك يكون
الحكم على صاحبها أو له ، فإما أن يكون في مقدمة النابيين
الملهمين أو أن يكون في قائمة المتخلفين المهملين .

مقومات للشاعرية :

والطاقة الشاعرية ، لا تكون إلا لطبع موهوب ونفس شغافة وقلب واع ولا يمكن أن تكون خبط عشواء أو مصادفة... ولكن يأخذ الشاعر مكناته الأدبية بين النابيين ، لا بد إذن من أن تتمتع بالعلم الوفير والتزود بالزاد الثقافي الغزير ، وأن يعيش أحداث عصره وأن يشارك الناس أفراحها وأتراحها

والمتنبى كان هذا الشاعر الذي فرض أدبه ، كما فرض نفسه على العالم من حوله ، لقد جمع إلى الطبع الموهوب الوعي والإدراك والتدربة والذكاء ، وكان له من ذلك كله الطاقة الشاعرية الممتازة التي شغلت الأجيال ، ومالت الأذان ، وجعلته وثقا بنفسه وهو يتحدث عن نفسه فيقول وهو يخاطب سيف الدولة :

وما الأثر إلا من رواة قصائدي * إذا قلت شعرا أصبح الدهر حشدا
فسار به من لا يسير حشما * وعلى به من لا يُغنى مغردا
أجزني إذا أثنيت شعرا فيأثما * بشعري أنك الماحون مرثدا
ودع كل صوت غير صوتي فإثني * أنا الطائر المحكي والآخر المسدى
أو يقول أيضا:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي * ولسمعت كلمتي من به صنم
أنام ملء جفوني عن شواردها * ويسهر الخلق جرأها ويختصم
كانت شاعرية المتنبى جسارة اكتسحت الحدود والمحدود
وتجاوزت الأزمان والعقبات وتغلبت على العرقيل والأسلاك
فلم يستطع أحد من الحائقين أن يوقفها ولطالما نافسه الحصاد
ذئوع صوته وربما غاب عنهم أنه لا يوزن به أمثالهم ، ولقد
كان في مقالة أبي فراس التي يرويها المؤرخون لكبر دليل على
أن المتنبى كان أشبه بالأساطير وكانت طاقته الشاعرية من

الأمور الغريبة أو العجيبة حينئذ ، فقد رويوا أن أبا فراس انتهز فرصة جفاء عارض بين الشاعر المتنبّي وسيف الدولة ليقول للأمير : إن هذا الدعي الذي يُدّعى عليك بشعره ، ويتعالى بأدبه قد تجاوز بأدبه حدّه معك ، وأنت تعطيه ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد يقولها من العام إلى العام وأنا على استعداد لأن أجيء إليك بعشرين شاعراً يمدحونك بأجود من شعره وأروع من معناه ولا يأخذون من المال أكثر مما يأخذ هذا الدعي وحده.

وظل أبو فراس يستفز سيف الدولة حتى رمى المتنبّي بنواة لطخت ثيابه وأسالت الدم على وجهه إلا أن المتنبّي ملك زمام نفسه ولم يغب عن وعيه ثم قال :

إن كان سرکم ما قال حاسدنا • فما لخرج إذا أرضاکم ألم
وكان هذا القول سحابة لطفات غليل الفضيض وغسلت أوضاع الحقد ، ومسحت ذلك الغبار الذي كان عالقاً بنفس الأمير الذي قام لمعانقة الشاعر وأعطاه ألفي دينار ليقول على الفور :

جاءت دنائيرك مختومة • عاجلة ألفاً على ألف
أشبهها فملك في قبليق • قُلبته صفّاً على صفٍّ
وهكذا نلّمح إلى أي حد كان المتنبّي متمكناً في نفسه قوياً في شاعر يته ، عنيفاً في خصومته ، ونلّمح أيضاً أن تفضيل سيف الدولة له على عشرين شاعراً لم يكن بالأمر الهين ، ولا بالحكم العابر ، فسيف الدولة نفسه كان أدبياً ناقداً ومتنوّفاً بصيراً إنّه لتقديمه - وهو عالم بدنيا الأدب - للمتنبّي دليل على أن المتنبّي كان بناءاً شامخاً أرفع من بنائه وعرشاً أجمل من عرشه ودولة أعرّ من دولته .. وقليل على شاعر يته قوله :

وما الدهر إلا من رواة قصائدي • إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

ولولا عظمة هذا الرجل ما كانت حملة النقد الكبرى التي وجهت إليه لنوازع المنافسة والحقد ، ولولا عظمته أيضا ما اختلف عليه للنقاد ، ولا نعجب إذا علمنا: أن حملة النقد التي وجهت إليه ربما كانت أعظم مما وجهت إلى الأديب كله في عصره ! وكثيراً ما شغلت الأنظار من حوله !

والحق: أن هذا الرجل كان قلّة من قلّات العصور ونادرة من نادر الأيام ولا يستطيع المتحدث عنه أن يحدد رسمه وأبعاده بل يجد نفسه أمام صقريّة فذة ورائعة من الروائع اقرأ له مثلاً وهو يتحدث عن مجتمعه فيقول :

أدقني زماني بلوى شرقت بهما • كودلقها ليكي ما عاش واقتحبا
وإن غمّرت جعلت الحرب والسدة • والسهمري أخا والمشرقي لباً
فالموت أعز لي والصبر أجمل بي • والبر أوسع والدنيا لمن غلبا
ففي الأبيات تظهر روحه ويبدو إحساسه بالحياة ، وفي الأبيات ترقعه وإياؤه وتعاليه وكبرياؤه ، وعقله واتزانه ، واحترامه للحق وبغضه للزيف والباطل ، وتمرده على القوضي التي كانت تسود المجتمعات من حوله . ولما كان المتنبي لا ينتمي إلى أصل كريم ولا إلى أرومة ناهية وجنناه دائماً يكمل نفسه ويعلي قدره ، ويعلي ذكره هنا وهناك ، وطريقه إلى ذلك كله: هو شعره الذي قوّمه وصقاه ، وخياله الفخصب الذي غذّاه وبيّانه الذي هتبه وأسلوبه الذي اختاره

ولاشك أن المتنبي كان ينهل من معين غياض من الثقافة والمعرفة في بيئة للعلم فيها سوق ، وللأدب فيها دولة وقد علمنا أنه لم يقم بمكان واحد ، ولم يعيش في بلد معين ولكنه تنقل وارتحل ، وسافر واغترب ، وفارق ونأى ، وركب الأهوال ، ونصّب نفسه لمساهم الحاقدين ونبال السالطين ولا يمكن لرجل يضع نفسه هذا للموضع أو يعرض صدره لتلك للطعنات أن يهمل بناءه أو أن يتغاضى عن أن يقوّي جانبه ؛ لذلك نهل من

زاد الثقافة والمعرفة ، وكان في كفايته الممتازة موضع إعجاب المعاصرين ، ولا تخلو كتب التراجم من الحديث عن مكانته الفادر وقد مر بنا حديث أبي علي الفارسي ، وبعض الورثيين .

الأسباب الغيبية التي خلعت شعر المتنبي :

أولاً : عُرف المتنبي بتوليد المعاني وتتابعها ، تتابع الغيث إذا اتهم ، وأنت أمام هذا الترادف وجر المعاني أو مجيئه مرادفاً أو معانفاً تقف موقف الدهول المصخوب بالإعجاب والروعة والحيرة والاضطراب في أن واحد لتلك الخصوبة في الشاعرية وهذه الثروة البيانية ثم بعد ذلك كله تعجب لهذه المعاني التي ينسج بعضها بعضاً ، وينمي الثاني منها الأول وهكذا .. وهذا النموذج من ذلك الشعر ، دليل هذه الدعوى : يقول المتنبي يمدح سيف الدولة ويبدأ بمناجاة الأطلال على عادة الشعراء الأقدمين :

فدينك من ريع وإن زدتنا كرباً • فإني كنت للشرق للشمس والغربا
وكيف عرفنا رسم من لم يدع لنا • فؤاداً لعرفان الرمنوم ولا لبنا
نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة • لمن بان عنه أن نلسم به ركبا
نذم السحاب الغر في فعلها به • ونعرض عنها كلما طلعت عتبا
ومن صحب الدنيا طويلاً فكشيت • على عينيه حتى يرى صنفها كذبا
وكيف التذاذي بالأصائل والضحي • إذا لم يعد ذلك التسميم الذي هبنا
ذكرت به وصلاً كأن لم أفر به • وعيشاً كاني كنت أقطعته وثبا
وفئانة المعينين قتالة السهوى • إذا نفحت شيوخاً رواتحها شبا
لها بشر للثر الذي قللت به • ولم أر بدراً قبلها قلند الشهبنا
فيا شوق ما أبقي ويالي من الثوى • ويا دمع ما أجرى ويا قلب ما لصبن
ومن تكن الأسد الضواري جوده • يكن ليله صبحاً ومطسعه غصبا

ولمست أبالي بعد إدراكى العُلا • لكان تراثاً ما تناولت لم كسباً^(١)
 وللصورة التي يعرضها الممتني قديمة معروفة ، فالشعراء طالما
 وقفوا على اللمن فنراه في البيت الأول يغذى فيه النبع الذي كان
 يمنحه حبه ثم ، هو الآن يمنحه كربه إذ رحلت عنه الشمس التي
 أشركت وعنه غربت وهكذا بجيد التشبيه ويضيف للجديد في
 قوله " وكيف عرفنا رسم من لم يدع " ليكمل للصورة ويشعرنا
 بأنينه وحنينه ، أما نزوله عن الأكوار إجلالاً للمربع أن يمر به
 راكباً ، ونعمه للسحاب التي أحدثت به هذا اللبى فهي صورة
 أخرى رائعة ودم السحاب لما تفعله بالمنزل لاحقاً له فيه ولذا
 هو يرجع عنه إلى هذه الحكمة " ومن صعب الدنيا طويلاً " وهي
 ثانياً هذا المقام العاطفي تشبه حفيف الأوراق الخافت في بستان
 تعصف فيه الرياح ويبيكى فيه المطر لا يكاد يلمس الأذن حتى
 يشعر الإنسان منه بالرحضا والارتياح كأنما يبعث في نفسه
 الاطمئنان ويشبع فيها الأمان والأحلام.
 والبيت الأخير كأنه اعتذار من الغضب الذي ذكره في البيت
 السابق وكأنه يقول: إنني إذا أدركت معالي الأمور فلست أبالي
 بعدها لكان ما يحصل في يدي إرشاً أم كسباً ، فالتراث المال
 للموروث: قال بعض الشراح: " وكان الوجه أن يقول : أتراشاً
 كان لأن الهمزة لا يليها إلا المسئول عنه فأخره لإقامة للوزن^(٢)
 وهكذا نرى كل بيت على انفراده لبنة من الماس هي وحدها
 جوهرة كريمة تتفرد بالحسن وتستقل بالجمال فإذا انضمت إلى
 غيرها كانت أشبه بالسحر البابلي ، وعلى هذا النحو الذي تتدفق
 فيه المعاني وهذه الصور التي تتعاقب فيها الأخيلة ، وتتهال فيها

(١) ديوان الممتني للبرقوقي ج/١/١٨٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٦ .

المشاهد مترجمية ، نقرأ له أبياتاً أخرى في مطلع قصيدة يمدح فيها بدر بن عمار فيقول: ^(١)

بقائي شاء ليس هم ارتحالا • وحسن للصبر زمو لا الجمالا ^(٢)
 تولوا بغتة فكان بيأسنا • تهيبني ففاجأني اعتيالا
 فكان مسير عيسهم ذميلا • ومسير النعم إشرهم انهمالا
 كان العيس كانت فوق جفني • منلخاة فلما شرن مسالا
 وحجبت للنوى الطيبات عني • فساعدت البراقع والحجالا
 ليسن الوشي لا متجملات • ولكن كي يصن به الجمالا
 وضقرن الغدائر لا لحسن • ولكن خفن في الشئع للضلالا
 بجسمي من بركة فلو أصارت • وشاحي ثقب لؤلؤة لجبالا
 ولولا أنني في غير ندم • لكنت لظنني مئي خيالا
 بدت قمرأ ومالت خوط بان • وفاخت عنبرأ ورننت عزالا ^(٣)
 وجارت في الحكومة ثم أبدت • لنا من حسن قامتها اعتدالا
 كان الحزن مشغوفاً بقلبي • فساعة هجرها جذا الوصالا
 كذا الدنيا على من كان قبلي • صروف لم يدمن عليه حالا
 والشاعر يريد أن يقول في بيته الأول: بقائي شاء ليس هم ارتحالا أي لما ارتحلوا عني ارتحل بقائي ، فكان بقائي شاء ارتحالا ، لا هم شاؤا ذلك وكأنهم زمو صبري للمسير لا جمالهم لأنني فقدت الصبر بعدهم ، وإنما نفى الارتحال عنهم لأن ارتحال بقائه أهم وأعظم شأنًا ، وهي مبالغة مقبولة واسم ليس هم في البيت ضمير الشأن وهم: مبتداً ، وخبره: محذوف أي ليس الأمر والخبر: هم شاؤا فحذف شاؤا لتقدمه في الكلام

(١) المرجع السابق ص ٣٣٧

(٢) زم البعير: خطمه بالزمام .

(٣) الخوط للخصن الناعم ، البان: شجر لين اللوام يشبه به لقد لطلوه ، رنت نظرت .

ويجوز أن يكون (هم) اسم ليمس ، إلا أنه لم يستعمل الضمير
المتصل موضع المتصل ضرورة والتقدير : بقائي شاء
الارتحال لا هم ، وزموا حسن الصبر لا الجمال .

ويمكن للخيال في البيت الثاني فيصور للبين بإيمان قد أخذه بغتة
فاغتناله اغتيال مفاجأة ثم يأتي في البيت الثالث بحسن تعليل
فيقول : كانت إيلهم تسير الزميل (السير المتوسط) ودمعي
ينصب في أثرهم لتصابيا وهو في المعنى يحتذي بقول ابن
الرومي :

لهم على العيس إمعان يشط بهم • ولدموع على الخدين إمعان
وهو يأتي بحسن التعليل والمبالغة المقبولة فيذكر في البيت
السادس أن الأحبة غنيات بحسنهن عن التجميل بلبس الديباج
ولكن يلبسه ليمس به جماله عن أعين الناظرين ، ثم يعلل
لتصغير شعرهن لا لطلب الجمال ولكن "خفن في الشعر
الضلالا " وذلك لأنها تغشاهن كالليل ، قال ابن جني : قد
وصفت الشعراء الشعر بالكثرة ، ولكن لم تفرط في ذلك مثل
المتنبي ! قال ابن المعتز :

دعت خلاخيلها ذوائبها • فجئن من قرنها ألي القدم

وفي قوله :

بدت قمرأ ومالت خطوط بان • وفاحت عنبرأ ورنث غزالا
براعة تنسيق ، وحسن تقسيم والمنصوبات في البيت أسماء
وضعت موضع الحال ، كأنه قال : بدت مشرقة ، ومالت متنتية
وفاحت طيبا ، ورنث مليحة والمعنى بوضوح أكثر : بدت تشبه
القمر في حسنها ومالت تشبه غصن بان في تننيتها : وفاحت
تشبه العنبر في طيب رائحتها ورنث تشبه الغزال في
سوانمقلتها وهو ما يسمي أوعرف بـ (التدبيج) في الشعر ومثله :

سفرن بدورا وانتقبن أهلة • وممن غصونا ولتفتن جازرا

ثم تأمل معي براعة التشبيه في قوله : "كان الحزن مشغوف بقلبي" لتجد كيف يمشق الحزن قلبه ؟ وكيف يصله إذا هجرته الأحبة ؟ يقول : كلما هجرتني وصل الحزن قلبي وعلق به . ومشغوف : روي بالعين المهملة ، وبالغين المعجمة ، وقد قرئ قوله تعالى : " قد شغفها حبا " بالعين وبالغين فمن قرأها بالعين فمعناها تيمها ، ومن قرأها بالغين يعني أصاب شغاف قلبها أو غشي الحب قلبها وشغاف القلب غلافه ، قال قيس بن الخطيم :

إني لأهواك غير ذي كذب • قد شغف مني الأحشاء والشغف
لما الشغف : فهو إحراق القلب بالحب مع لذة يجدها ، كما أن البعير إذا هني بالقطران يجد له لذة مع إحراقه ، قال امرؤ القيس :^(١)

لنقتلني وقد شعفت فؤادها • كما شعف المهنوء الرجل الطالبي
أي أحرق فؤادها بحبي كما أحرق الطالبي هذه المهنوء ففؤادها طائر من لذة الهناء لأن المهنوء تجد للهناء لذة مع حرقه .^(٢)

وكثيراً ما تملئ عليه تجاريب الحياة الحكمة فيأتي بها غفو
الخطر فيقول "كذا الدنيا على من كان قبلي" فهو يرى الدنيا صورة معادة مكرورة تعيد نفسها مع الأيام ثم بين ذلك فقال :
هي صروف لا تكوم على حالة ولحدة

ثانياً : ومن الأسباب التي خللت شاعريته أنه : لا يدور بخلد
إنساناً معني من المعاني ولا مشكلة من المشكلات ولا حال من الأحوال إلا ويتبين له أن ذلك كله قد صورته وأحسن تصويره

(١) في ديوان إنري القيس بالغين والرواية نص ١٤٢ لمقتلني التي شغفت....

(٢) راجع ديوان الممتلي للبرقوقي ج/٣/٣٣٩-٣٤٠

وتحدث عنه حديث الحائق الصنع ، وعرض له عرض الخبير
عوتاوله تناول اللبيب الأريب ولا تلتقي بأديب يتحدث إليك ،
ويطوف بك هنا أو هناك دون كون أن يكون ملح حديثه حكمة
للمتنبى يستأنس بها أو صورة شعرية رائعة يدفع بها مللاً عنك
، فالمتنبى يأتي بالحقيقة التي بعدها الناس ، ولكن لا يستطيعون
تصويرها فيأتي عليها بأسلوبه وخياله فتصبح وكأن أبا الطيب
قد استأثر جمعها بعد أن كانت ملكاً شائعاً ، لكل منها نصيب
مشاع * وهذه بعض أمثلة توضح ما أشرت إليه ، ويكفي أن
تضع بين شطري البيت إحدى أدوات الاستفهام لتظهر لنا طريقة
الشاعر في استخدامه النوع المعروف في علم المعاني بشيء
كمال الاتصال فهو وقوع الجملة الثانية جواباً عن سؤال
لقتضته الجملة الأولى :

- أفاضل الناس أعراض لذا الزمن • لماذا ؟
- يخلو من الهم لخالهم من الفطن !
- لولا المشقة ساد الناس كلهم • لماذا ؟
- للجود يفقر والإقدام قُتال !
- من يهن يسهل الهوان عليه • كيف ؟
- ما لخرج بميتٍ إيلام !
- وكل امرئ يولي الجميل محبب • أرده بقوله :
- وكل مكان يثبت للعز طوب !
- وكن على حذر للناس تستر • شرحه بقوله :
- ولا يغرك منهم ثغر مبتم !
- لحي الله ذي الدنيا متآخراً لراكب • غتره بقوله :
- فكل بعيد لهم فيها معتب^(١) !

(١) لحاها الله : قبحها ولمعنها ، المناخ : المنزل وهو تمييز .

فتى كالمسحوب الجون يخشى ويرتج بيته بقوله :

يرجى الحيا منها وثخشي الصواعق !

وماقتل الأحرار كالعقر عنهم * ثم أيدى أسفه بقوله :

ومن لك بالحر الذي يحفظ لليدا !

ولا يرضى أبو الطيب في بعض الأحيان بتفسير واحد بل
يُعزّزه بثان فمن ذلك قوله :

رحلت فكم بالك بالجان شادن * عليّ وكم بالك بالجان ضيغم

هو لم يكتف بهذا التعبير ، بل زاد عليه إيضاحاً فقال :

وماريّة اقترط المليح مكانه * بأجزع من ربّ الخسام المصمم

مثال آخر قوله :

الرأي قبل شجاعة الشجعان * هو معني شائع يخص به كل
الناس حتى العامة والسوقة فالفضل للشاعر هنا أنه ألبس هذا
المعنى للمتداول أجمل ما يمكن من اللفظ مع السهولة والوضوح
والإيجاز والسلامة ، ولو كان وقف عند هذا الحد لما طالبه أحد
بمزيد ، ولكن للصنعة -صنعة الخاصة - حكمت عليه كما
يقولون ، فظهرت طريقته في المشي والتفسير والتوضيح
والتعليق والحوالي مما رأيناه متفرقا في الأمثلة للمقدمة فقال :

الرأي قبل شجاعة الشجعان * هو أول وهي المحلّ الثاني

فإذا هما اجتماعا لنفس مرّة * بلغت من العلياء كل مكان

ولربما طعن لفتى أقرانه * بالرأي قبل كطاعن الأكران

لولا للعقول لكان أدنى ضيغم * أدنى إلى شرف من الإتمان

فأبهر الطبيب يحيى بالقاعدة ثم يشرحها ويعلق عليها بما يشاء لكنه في بعض الأحيان يفعل العكس أعني أنه يعرض أفكاراً متعددة وتشبيهات مختلفة ثم ينتهي منها إلى قاعدة تسير في الناس مسير الأمثال من ذلك قوله:

عجبت لمن له قذٌ وحذٌ • ويثو نيرةً للقضم للكهام
ومن يجد الطريق إلى المعالي • فلا يثرُ للمطى بلا مستام
ولم أرَ في عيوب الناس شيئاً • كنقص للقادرين على الثمام
وقوله عندما سمع بأن قوماً نعوه في مجلس سيف الدولة بطلب:
يا من عُيبت على بعرٍ بمجلسه • كلُّ بما زعم الناصون مرثتهن
كم قد قُتلت وكم قد متُّ عندكم • ثم لتقضت فزال القبر والكنف
أي أن كل إنسان مرثته بالموت فلا يفرح أحد بنعي الآخر ..
إلى أن قال :

ما كلُّ ما يتمنى المرء يتركه • تجري الرياح بما لا تشتهي السفن
رأيتكم لا يصون للعرض جاركم • ولا يدرُ على مرعاكم اللتين
ومن طريف ما يروى في هذا الصدد: أن الصاحب بن عباد -
وهو من ألد خصوم المتنبى - مات له ولد وانتهالت عليه آلاف
التعازي من مختلف الأنحاء وكان كلما اقتضت رسالة منها
ليقرأها وجدها مصدرةً بهذين البيتين من شعر المتنبى في رثائه
لأخت سيف الدولة :

حلوى الجزيرة حتى جاعني خبرٌ • فزعت منه بأمالى إلى الكنبر
حتى إذا لم يدع صدقه أملاً • شرقت بالشمع حتى كاد يشرق بي
فلما حضر إليه أحد المعزين من الأصدقاء وأخذ يواسيه - على
عادة المجاملة في مثل هذه المواقف - قال له تالله ما للمني
مصائب الموت كما للمني أن تُصنر هذه الرسائل كلها بهذا
الشعر وهم يعلمون رأيي في صاحبه !

ثالثاً: ومن محاسن شعر المتنبي - في رأيي - وتلوعة بالمقابلات اللفظية ، ولاعجب وهو صاحب القول المشهور: ويضدها تتميز الأشياء "لقد عرف المتنبي بصياغته للجمع بين الأضداد أو بالمقابلات والمكسيات : فهو إذا قال أبيض^(١) فلا يد أن يتبعه بأسود وإذا قال نجمة فلا محالة - من أن يردفها بجهم حتى لكان هذه للمقابلة فرض حتم يأتى إذا تركها :

(قالليل) حين قنمت فيها (أبيض) • (والصبيح) منذ رحلت عنها (أسود) وخفوق قلب لو رأيت لهيبه • يا (جنّي) لرأيت فيه (جهنما) أبداً (تسترد) ما (تهب) اللثيا • فياليت (جودها) كان (بخلا) وإذا أنتك متمتي من (ناقص) • فهي للشهادة لي بأنّي (كامل) • سبحانه خالق نفسي كيف (لثها) • فيما للنفوس تراه غاية (الكم) • كأن الحزن مشغوف بقلبي • (قساعة هجرها) يجد (الوصالاً) [أزورهم] [وسواد] [الليل] [يشفع لي]

• (ولثتي) (وبياض) (الصبيح) (يغري بي) ولحيانا يجيء المتنبي بالمعاني على عكس ما هو معروف عند الناس - فالمشهور أن الرئس أشرف أعضاء الإنسان ولكنه يعطى هذه المكانة للأقدام ، فيقول : خير أعضاءنا الرؤس ولكن • فضلتها بقصتك الأقدام ويقول وهو يمدح بدر بن عمار وهو يتولى حرب طبرية من قبل أبي بكر محمد بن رائق سنة ٢٢٣هـ :

قتلت نفوس العدى بالحديد - حر حتى قتلت بهن الحديد ويقول :

إذا تركت عن قوم وقد قدروا • أن لا تفارقهم فالرحلون هم في جحفل من العيون خبارة • فكأنما يبصرون بالأذان - فوق السماء وفوق ما طلبوا • فإذا أرغوا غاية نزلوا

(١) أبو الطيب المتنبي لمحمد كمال حلمي ص/ ٢٨٣ .

رابعاً: ومن الأسباب التي خلّدت شعر أبي الطيب (نظمه للحكمة)

فقد عرف بالشاعر الحكيم الذي يصوغ من خلاصة تجاربه ومعارفه ومحنه وصراعه مع الأحياء من حوله ، هذا هو الممتنبي الذي أوّتي الحكمة وفصل الخطاب في كثير من شعره ، وأكثر من ذلك فقد صارت بعض أشعاره تجري في الناس مجرى الأمثال ، وتعبّر لصدق تعبير عن كثير من الأمور والأحوال وهذه بعض النماذج والأمثال :

ماكل ما يتمنى المرء يدركه • تجري الرياح بما لا تشتهي السفن
ذل من يعيط الذليل بعيش • ربأ عيش أخف منه الجحيم
من يهن يسهل الهوان عليه • ما لجرح يموت إلا سلام
إذا كنت أكرمت للكريم ملكته • وإن كنت أكرمت للثنيتم تمرداً
ووضع للثدي في موضع السيف بالعلى

• من تكبر الدنيا على الحر أن يرى • من ترك موضع السيف في موضع الثدي

• إذا كانت النفوس كبارا • تدوا له ما من صدقته يـد
• ولحتمال الأذى وزوية جانبـه • تعبث في مرادها الأجسام
ذوالعقل يشقى في التعميم بعقله • عيش أخصى به الأجسام
ومن البلية عدل من لا يرعوي • وأخر للجهالة في الشقاوة ينعم
ومن العداوة ما ينالك دفعه • عن جهله وخطاب من لا يفهم
إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونـه • ومن المصادقة ما يضن ويؤلم

• وصنق ما يعتاده من توهّم • ومن الأشعار التي جرت في الناس مجرى الأمثال ، وحفظتها معظم الأجيال قوله في شطرات أبياته :

• ومن وجد الإحسان قيذاً حقيداً •

- وفي عنق الحسناء يُستحسن العقد •
- ليس التكحل في العينين كالكلحل •

ومن الأمثال الجيدة قوله:

- مصائب قوم عند قوم فوائد •
- للجوع يرخصي الأسود بالخييف •
- رب عيش أخف من الحجام •
- وبضدّها تتميز الأشياء •
- ولا يدّ دون الشهد من إبر الشحل •
- العبد ليس لحرّ صالح بأخ •
- وبعض العذر تقني •
- لا تشتر العبد إلا والعصا معه •

أبو الطيب المتنبّي في مصر:

بعث كافور الإخشيدي برسالة إلى دمشق يستدعي بها للمتنبّي ليحظى بقلاند شعره ، فلما قدم رحب به قائلا : أهلا بشاعر العرب أهلا بابي الطيب لقد أبطأت علينا كثيرا والدولة لا تكمل عظمتها إلا بمثلك إنك ستكون في ضيافتنا ، وأرجو أن تطيب لك الإقامة ، ثم أعطاه عشرة آلاف درهم بعد أن منحته بأول قصيدة ، وظل في صحبته أربع سنوات ثم غادر مصر إلى الكوفة بعد وقعة الحائقين بينهما حتى هجاه ^(١)

(١) الشاعر الطموح لعلي الجارم بك ص ٧٠ ط دار المعارف

كافور الإشيقي من هو؟

هو عبد أسود كان مملوكاً لقوم من أهل مصر يعرفون ببني عيَّاش يستخدمونه في مصالح السوق ، وقد وهبه بنو عيَّاش لخلعان بن طنج ، فلما مات سيده أبو بكر بن طنج وولده صغير ، وأخذت البيعة له ، وتفرّد كافور بخدمته وخدمة أمه ، فقرّب من شاء ونحى من شاء ونظر إليه الناس من صغر همّهم فتقرّبوا إليه ومعى بعضهم ببعض حتى صار رب الدار لا يأمن أهله على الشراب بما ينويه لكافور . ففزع منه كافور فدمس له السم ، وخلص له الدار ...!

وكان كافور أسود اللون فاحم للسواد قصير القامة مترهل اللحم منتفخ البطن ضخّم الجمجمة لفطس الأنف مقرب الشفة السفلى واسع العينين ، تتبعت منهما ومضات فيها الدهاء وفيها مكر وخداع ، بيد أنه كان ذكياً شجاعاً حازماً وكان محباً للأدباء والعلماء يصانقهم ويقربهم وكانت تقرأ عنده كل ليلة سير الأنبياء ، وقد حزن في نفس أبي الطيب أن يمدح ذلك العبد الحيثي ويترك سادات العرب لا يجدون لمحامدهم نائراً إلا أن هناك أملاً يداعبه عند كافور الذي أغراء بالولاية ، فالمتمني يصف لابنه محسب كافورا ومجلسه فيقول :-

دخلت يا بني عليّ أمة خبلي يسجد أمامها صنابير الأبطال ، فوق عرشه فرأيت قرداً في ثياب أمير عينا عينا ثعلب إطرأقه إطرأق

شعبان إلى أن يقول : سحقاً لهم وسحقاً للزمان الذي قذف بي إليهم ، والله لكأنني لشعر أني جلست لأهجوهم لا لأمنحهم .. إن مدح الأسود سيخلق في الشعر فناً جديداً أسمعت يا محمد ؟ سيخلق (فن المديح الهجائي) .^(١)

(١) الشاعر الطموح علي الجارم ص ٨٤ .

قدم المتنبي علي كافور عام ٣٤٦ - ٣٥٠ لميجحه بيد أنه كان على حذر وقد أخفى ما بداخله من ضجر ولعل هذا كان واضحا في أول قصيدة حيث كان مطلعها :
كفى بك داء أن ترى الموت شافيا • وحسب المنايا أن يكن أمانيا
والأمر الذي استوجب العجب أن المتنبي قد اشترط على سيف الدولة أن ينشده وهو قاعد فلما ذهب إلي العيد الإخشيدى لم يشترط عليه ذلك الشرط ، ولعل هذا ما دعا للدكتور طه حسين إلي قوله عن المتنبي : " وقد هان على نفسه ، فهانت نفسه على الناس ، ماتت نفسه أو كادت تموت حين فارق سيف للدولة هاربا من الكيد ومكر الحاشية وباع كرامته وصدافته من كافور بثمن بخس هو أن يكون واليا في ظل عبد :
يستخشن الخز حين يلمسه • وكان يُبْزِي بظفره القلم

كما كان يقول في شبابه ^(١)
ولما تناثرت أمال المتنبي كما تنثائر أوراق الزهرة الذابلة واحدة واحدة وجد اليأس طريقا إلي قلبه فألقط فيه الأحقاد والأضغان والأحقاد وأجاش صدره بالمعاني الغضبية التي بقيت تنكرا مؤلما عن إقامته بمصر كقوله:
وكم ذا بمصر من المضحكات • ولكنه ضحك كالنكا
وقال : ومصر لعمرى أهل كل عجيبة .. على حد قول الموزع اليوناني القديم هيرودت " مصر بلاد العجائب " ويقول المتنبي عن الدين في مصر وهو يهجو كافورا : ^(٢)
أغاية للدين أن تحفوا شواربكم • يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

(١) مع المتنبي د/ طه حسين ص ٨٦ .
(٢) لحفى شاربه بالغ في قصه يقول لأهل مصر : لاشيء عنكم من الدين سوى إحقاق الشوارب حتى ضحكت من جهلكم الأمم بطاعتكم لهذا الأسود الديوان ص ٥٠٢ ط دار بيروت ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م .

هذا ما تركه شاعرنا لمصر بالذات وما تركه لكافور من
الأهاجي التي لا تقنى والتي خرج بها على الأدب ، وضطت
على محاسنه التي أجاد فيها ليّما إجادته مدة إقامته بمصر ^(١)

♦♦♦♦♦

المتنبى بين مدح وهجائه لكافور :

إن قدرة المتنبى على جمعه بين المتناقضين راعت الأبرار
وأدهشت العقول ، فقد قبل دعوة كافور له ، وقد حز في نفسه
أن يمدح ذلك العبد للحبشي ويترك سادات العرب الآن هناك
أعلا يداعبه عند كافور الذي أغراه بالولاية فمدحه بثمان قصائد
أنشده أولها في جمادي الثانية سنة ست وأربعين وثلاثمائة ،
وهي البياتية التي يقول في مطلعها :

كفى بك داء أن تري الموت شافيا • وحسب المنيا أن يكن أماتيا
وفي شوال سنة ٣٤٧ هـ كانت آخر مدائجه البياتية التي مطلعها :
أغالب فيك للشوق وللشوق أغلب • وأعجب من ذا الهجو والوصل أعجب
وعتتها تسع وأربعون بيتا ومنها قوله :

ألا ليت شعري هل أقول قصيدة • فلا أشتكي فيها ولا أتعجب ^(٢)
وبي ما ينوء للشعر عني لثقه • ولكن قلبي يا ابنة للقوم قلب ^(٣)
وأخلاق كافور إذا شئت منحه • وإن لم أشأ شئني علي وأكتب ^(٤)
إذا ترك الإنسان أهلا وراة • ويشم كافورا فما يتغرب ^(٥)

(١) أبو الطيب لمحمد كمال حلمي ص ٦٠

(٢) ألا حرف استفتاح وتنبيه ، ليت شعري : ليت علمي ، وأشتكي وشكا
بمعنى ، ولتعتب ولتعتاب والمعاتبة : تولصف للموجدة ومخالطة الإدلال.
(٣) ينوء: ينفذ ويمطرد ، وقلب : أي يصير يتقلب الأمور ولتصرف فيها .
(٤) لملي علمي ولمليت له : أي قلت له فكتب عني .
(٥) أهل للرجل: عشيرته وأهل للرجل زوجته ، ويم: قصد ، وتغرب
واغترب بمعنى ولحد .

فَتِي يَمْلَأُ الْأَفْعَالُ رَأْيَا وَحِكْمَةً • وَيَادِرَةُ إِيَّانَ يَرْضَنِي وَيَخْضَبُ (١)
 إِذَا خَضِرَتْ بِالسَّيْفِ فِي الْحَرْبِ كُنْهَ • تَبَيَّنَتْ أَنْ السَّيْفَ بِالْكَسْفِ يَخْضَرُ
 تَزِيدُ عَطَايَاهُ عَلَى الْكِبَرِ كَثْرَةً • وَتَلْبِثُ أَمْوَاهُ السَّمَاءَ فَتُخْضَبُ (٢)
 يَرِيدُ بِكَ الْحَسَادُ مَا لَلَّهُ دَافِعٌ • وَسَمَرُ الْعَوَالِي وَالْحَدِيدُ الْمَزْرُبُ (٣)
 وَكُلُّ أَمْرٍ يُولِي الْجَمِيلَ مُحْتَبٌ • وَكُلُّ مَكَانٍ يَنْبُتُ الْعِزَّ طَنَبٌ (٤)
 وَدُونَ الَّذِي يَبْغُونَ مَا لَوْ تَخَلَّصُوا • إِلَى الْمَوْتِ مِنْهُ عَشِيَّةٌ وَالْطَّلَقُ شَتَبٌ (٥)
 إِذَا طَلَبُوا جَدْوَاكَ أَصْطَوَا وَحَكَمُوا • وَإِنْ طَلَبُوا الْفَضْلَ الَّذِي فِيكَ خَبَسُوا (٦)
 وَلَوْ جَازَ أَنْ يَخْتَوَا عِلَاكَ وَهَيْهَاهُ • وَلَكِنْ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا لَيْسَ يُؤَهَّبُ
 ثُمَّ يَقُولُ : سبحان الله
 وَأَنْتَ الَّذِي رَبَّيْتَ ذَا الْمَلِكِ مُرْضِعًا • وَلَيْسَ لَهُ أُمٌّ هُنَاكَ وَلَا أَبٌ
 وَكَانَتْ لَهُ لَيْثُ الْعَرِينِ لَشَبَابِهِ • وَمَا لَكَ إِلَّا الْهِنْدَوَانِيُّ مَحْلَبٌ (٧)
 سَلَلَتْ سَيُوفًا عَلِمَتْ كُلَّ خَاطِبٍ • عَلَى كُلِّ عَوْدٍ كَيْفَ يَدْعُو وَيُخْطَبُ (٨)
 وَيُشْفِيكَ عَمَّا يُنْسَبُ النَّاسُ أَنَّهُ • إِلَيْكَ تَنَاهَى الْمَكْرَمَاتُ وَتُنْمَبُ (٩)

(١) الفتى : الشاب ، والسخي : الكريم - والرأي : العقل والحكمة : تنطلق على
 الحلم والعدل والعلم ، والبادرة : البديهة وإيَّان : أي حين .
 (٢) التلبث بالفتح والضم : المكث وأمواء : جمع ماء وأصله مَوَّه بالتحريك وأمواء
 جمع قلة ومياه جمع كثرة ، ونضبت الماء : غارت وفنيت ..
 (٣) العوالي : جمع عالية وهي أعلى الرمح أو رأسه أو النصف الذي يلي
 السنان ، والحديد المزروب : المحدث والمراد السيوف والمعنى : يريد بك حسادك
 للسوء والله يدفعه عنك والرمح والسيوف .
 (٤) يبغون : يطلبون ، بما مبتدأ مؤخر خبره دون أي دون ما يطلبون من
 زوال ملكك أحوال فلو تخلصوا منها إلى الموت لم يبق أنت وشباب ألقاهم من
 شدة ما يرون من الهول .
 (٥) الليث : الأسد ، والعرين : ماوى الأسد ، وللشيل : ولد الأسد إذا أدرك الصيد
 ، والهندواني : السيف المصنوع من حديد الهند ، أي أن الأسد يحمي شبلة
 بمخالبه وأنت حميته من الأعداء بسيفك .
 (٦) سئل : السيف وأسله : أخرجه من غمده ، والخطاب اسم فاعل من خطب ،
 والعود : الخشب والمراد به المنبر .
 (٧) نسبه نسبا ونسبة : ذكر نسبه والمكرمات : جمع مكرمة وهي فعل الكرم ،
 وأصل تناهى : تنهأى حثفت إحدى التاميين أي تبلغ نهايتها ، ولأنه وخبرها
 فاعل يخطبك .

سَمْعَاءُ التَّكْرِي

- وَأَيُّ قَبِيلٍ بِسَتْحَقِّكَ قَدْرُهُ • مَعْدُ بْنُ عَدْنَانَ فَذَلِكَ وَيَغْرِبُ^(١)
وَمَا طَرَبَنِي لَمَّا رَأَيْتُكَ بِسَدْعَةٍ • لَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أُرَاكَ فَاطْرِبُ^(٢)
وَتَعَذَّلَنِي فِيكَ الْقَوَائِي وَهَمَّتَنِي • كَأَنِّي بِمَدْحٍ قَبْلَ مَدْحِكَ مَذْنِبُ^(٣)
وَلَكِنَّهُ طَالُ الطَّرِيقِ وَلَمْ أَزَلْ • أَفْشَنْ عَنْ هَذَا الْكَلَامِ وَيُنْهَبُ^(٤)
مَشْرِقٌ حَتَّى لَيْسَ لِلْمَشْرِقِ مَشْرِقٌ • وَغَرْبٌ حَتَّى لَيْسَ لِلْغَرْبِ مَغْرِبُ^(٥)
إِذَا قُلْتَهُ لَمْ يَمْتَنِعْ مِنْ وَصُولِهِ • جِدَارٌ مَعْلَى أَوْ خِيَاءٌ مُطَهَّبُ^(٦)

تَحْلِيلُ وَتَحْلِيلُ:

- ١ -

تطالعنا الأبيات من أول وهلة بنفس كبيرة امتزج الفخر بدمها ،
فالشاعر يرغم ما يعانيه من لوعة وأسى على أيام نعمة وسعادة قد
ولت إلا أنه واسع الصدر صاحب قلب يتصرف ، ونفس تملك
للحيلة ، ولذا فهو يمضي إلي قرص الشعر متعالياً على الهموم

- (١) لقبيل : الجماعة من الثلاثة فصاعداً ، ومعْدُ بْنُ عَدْنَانَ أَبُو الْعَرَبِ ،
ويعرب بن عَدْنَانَ أَبُو الْيَمَنِ ، يقال : إنه أول من تكلم بالعربية والمراد : أن
كانوا أعطى قدراً من كل قبيل .
(٢) الطرب معركة : الفرج والحزن من أسماء الأضداد أو هو خفة تلحقك
تسرك أو تحزنك ، وللبدعة : الحدث في الدين بعد أن كمل أو ما استحدث بعد

للنبي ﷺ

- (٣) التحل : الملامة ، والهمة بالكسر والفتح ما هم به من أمر ليفعل
(٤) يقول : طال تنقلي في البلاد حتى وصلت إليك ولم أزل في مدحني فينبه .
(٥) للمشرق : الأخذ في ناحية المشرق والتغريب : الأخذ في ناحية المغرب ،
يقال : شتان ما بين مشرق ومغرب ، أي سار كلامي شرقاً حتى فتى إلى
حيث لاشرق ، وغرباً حيث لاغرب !
(٦) جدار معلى : أي مزروع ، والخياء : ما لقيم علي صودين أو ثلاثة من
وير أو صوف ، والمطنب : جصمتين حبل الخباء ، والمطنب : المشدود
بالأطناب وهي حبال تشد بها أوتاد الخيمة والمراد : أن شعره قد سار في
الأرض حتى عم مكان المدن وسكان الخيام .

ثم بنوه بفرحتهم (أو طربهم) الذي يستخف به عند رؤية كافور ، ولطالما هم
تملئ رؤيته !! كما نرى في الصورة التي أعرضتها لكم في هذا العدد من مجلة

ثم يتحدث عما كان ينظمه من مدح قبل صلته بكافور ، إن قوليه
تلومني علي مدح غير كافور ، وإن همته تعزله إن قنع بغيره من
الملوك فهو كمن أتى دنيا فجاء ليعتذر ببعد الطريق ، وهو الذي
يعد الشعر ويجيده فتسرقه للشعراء وتقبل علي رونقه للعشاق ؛
ولذا فشعره يصل إلي الأفاق فيملأ الدنيا - بانيها وحضرها علي
السواء !

- ٢ -

عُرف الممتنبي بالإبداع واختراع المعاني وتوليدها ، كما عُرف
بجنوحه إلي الالتواء والإغراب ، بيد أن أفكاره هنا جاءت - في
معظمها - واضحة سهلة وكأنه راعي (مقتضي حال المخاطب) إلا
في القليل النادر الذي يحتاج إلي رؤية وإعمال فكر ، خذ مثلاً قوله:
إذا ضربت بالسيف في الحرب كفه * تبين أن السيف بالكف يضرب
وقوله أيضاً :

ودون الذي يبغون مالو تخلصوا * إلي الشيب منه عشت والطفل شيب
فمعنى البيت الثاني : أن الذي يريده الحصاد - دونه الموت - الذي لو
تخلصوا منه إلي الشيب عشت وشاب طفلكم مما يروونه من الهول !
ووضوح الأفكار هنا قد تصل به إلي حد المبالغة كما في قوله :
وماطربي لما رايته بدعة * لقد كنت أرجو أن أراك فاطرب
فهو ينفي أن يكون طربه حدثاً وقد كان يرجو أن يراه فيطرب
لرؤيته فإذا ما علمنا أن الطرب خفة تلحقه لرؤيته علمنا أيضاً أنه
جعله شيئاً يضحك أو قرداً نستمتع حركته فهو تصوير سطحي ،

واستهزاء لا محالة ، مع أن الشاعر في مقام مدح ، ولا أدل على ذلك من قوله لما وقعت بينهما جفوة : ^(١)

ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة ليضحك ربنا للحداد البوالكيا!

- ٣ -

والأبيات فيها تقليد لبعض السابقين نقوله مثلاً :

إذا ضربت بالسيف في الحرب كفه إذا ضربت بالسيف في الحرب كفه
هو تقليد لقول البحري :

فلا تغارب بالسيف كل غلته لمضى فإن لكف لا السيف يقطع
وقوله :

ولو جاز أن يحوا غلاك وهبها ولو جاز أن يحوا غلاك وهبها
هو من قول أبي تمام :

ولفح لنا من طيب خيمتك نفحة إن كانت الأخلاق ممّا يوهب
وقول المتنبي :

إذا ترك الإنسان أهلاً وراءه ويثم كافوراً فما يتفرب
هو من قول الطائي :

هم رخط من لسمي بعيداً رخطه وبنو أبي رجل لغير بني أب
وقول المتنبي :

ويغنيك عما يمسب الناس أنه إليك تنامي للمكرمات وتمسب
هو من قول أبي طاهر :

خلات يقه للمكرمات ملسب تنامي إليها كل مجتر مؤثما
وقوله :

وتحذني فيك القوالي وهنتي كاني بمدح قبل مدحك مذنب
هو من قول أبي تمام :

وهل كنت لا مندياً يوم أنتجسي حوالك بأمالي فجتتك تانبا

(١) الديوان ص/ ٥٠٦ ط دار بيروت .

وقوله :
مشرق حتى ليس للشرق مشرق * ومغرب حتى ليس للمغرب مغرب
هو من قول حبيب:
مغربت حتى لم أجد ذكر مشرق * وشرقت حتى قد نسيت المغرب

- ٤ -
هذا البيت تركل على الفنان هو المتنبى *
وارتباط الأبيات بقلها : واضح وانعكاس الشخصية على القصيدة
ظاهر جلي ، فهو ذو أمل تقف دونه الحساد حتى لا يقول للشعر إلا
عائبا وهو ذو حيلة وتصرف فلا تصدّه للنوازل عن قرض الشعر
وهو صاحب القريض الذي ذاع صيته وطار حتى إنه لم يدع
حضرا ولا بدية !
بيد أن الشاعر أسرف وبالع حين زعم أن الممدوح ميمما على
الأنساب حتى لا يرى قبيل يستحق أن ينسب للممدوح إليه ، وأن
معد بن عدنان ويعرب بن قحطان فداه ، وعلى كل حال هي
مبالغات مقبولة مادامت لا تمس العقيدة والإسلام .

هلا ما كان رأيه أم يسهل عليه ؟
والفكر : ذاتية بحتة لا تمت إلى الإنسانية بصلة ، فهو يخلع على
ممدوحه صفات الكمال ليظفر منه بعر الآمال وحسبه أنه نوء بأماله
في هذه القصيدة حين قال :
لما المسك هل في الكاس فضل أنامله * فإني أغني منذ حين
وتشرب
إذا لم تثل بي ضيعة أو ولاية * فجوذك يكسوني وشغلك يسلب

ما تكلم على عالم في صراحة ؟
وعاطفة الشاعر واضحة للكذب إذ أنها عاطفة رغبة وطلب ، أما
ما جهزنا ويثير لفعالنا عقيب للقراءة إنما هو من أثر الصنعة لا من

صدق للعاطفة ، فالشاعر مثلهف على أمل يرقبه ، حريص على اليوم الذي ينظم فيه شعرا خاليا من الشكابة والعتب ، ولذا فهو يمدح كافورا على كرمه الذي يجعل العفاة حكاما فيما يطلبون من أجل هذا كانت صنوره اللبانية علي غير مستواه الذي عرف به من استعمال الكنايات الرائعة والمجازات الفائقة والتمثيل المحكم ، وما ذلك إلا صدق لنفسية لاهلة لم تجد راحتها أو أملها عند ممدوحها ، ولعلنا نثق من كذب العاطفة واضطراب نفسيته إذا علمنا أن الشاعر قد ناقض نفسه فهجا كافورا هجاء مقذعا وذلك لما لم ينل شيئا مما كان يؤمله في كافور .
 وجاءت أفكاره - بالطبع - ممزقة للنسج حرة لم تخضع لترتيب فما يجيء منها بالكرم يجوس خلاله وصف بالشجاعة ووصف بالرأي فهو بعد أن وصفه بالكرم ويأنه أهل لكل مغترب خلص إلى أنه شجاع مقدام يضرب بكفه لا بالسيف .. وبعد هذا الاستطراد عاد ثانية ليصف الممدوح بالكرم فهو من جوده بحيث يعطي العفاة ويجعلهم حكاما فيما يطلبونه وهذا دليل على نفسية مضطربة

٧ - ٧ - نماذج على الأسلوب

والأسلوب للمنتبى هنا جريح إلى المبالغات كثيرا ، وأسرف في المجازات ، ومن ذلك ما زعمه من أن ممدوحه سما على الأنساب ، وأن أخلاقه هي التي تملئ على الشاعر فيكتب واقه لشد ، والغلام الإخشيد شبل ، والملك عرين وأن السيوف تعلم للخاطب كيف يدعو وسيخطب ، والجدار المعلى يكنى به عن الحضر والخباء للمطنب يكنى به عن البادية ، ومن ذلك أن شعره يشرق حتى لا مشرق للمشرق ويغرب حتى لا مغرب للمغرب وهو كذلك ناقد إلى كل جاضرة وبادية من حيث لا يمنع وصوله للجدار للمعلى أو الخباء للمطنب فالأسلوب للشاعر - مع هذا - قوى جزل ويؤكد ذلك قدرته على ما ذكره من مجازات وكنايات هي صفة شاعر فحل بلغ بشعره للغاية واستحق به الخلود والقارئ يحس بجرس الأبيات ولحن متلائم لا قلق فيه ولا تشوؤ وهذا ما أشار ففعالنا وإن كانت

قد خلت من البديع اللهم إلا ما جاء صفو للخاطر كهذه المطابقة في قوله :

فشرق حتى ليس للشرق مشرق * وغرب حتى ليس للغرب مغرب
وحول قول المتنبي :

وما طربي لما رأيته بدعة * لقد كنت أرجو أن أراك فاطرب
يعلق أبو بكر الكندي - وهو من علماء تلك الحقبة - مخاطباً حلقة
من الطلاب فيقول : أرايتم شاعر أخذ أن قال امرؤ القيس :

قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل * ... قال لممدوحه :

إنني أعجب لطربي عند رؤيتك أيها الأمير لأنني كنت أؤمل أنني
سأملأ الدنيا ضحكاً حين أراك إن المتنبي أيها الطلاب قدم إلي
مصر ليفرج عن نفسه برؤية أميرنا المضحك - جزاه الله بما
يستحق - جعل من أميرنا قرداً تتراحم الناس عليه ليروا الأعيه
فيطربوا ويضحكوا ، وهنا أغرق القوم في الضحك والجلية ، ثم
قال أبو بكر :

من علم هذا للشاعر العربية حين قال :

لقد كنت أرجو أن أراك فاطرب * فيرفع للفعل (اطرب) وهو
منصوب لا مناص ، لأنك إذا جعلت اللقاء عاطفة وجب نصبه
بالعطف علي أراك ، وإن جعلتها للسبب وجب نصبه بأن مضمرة
، فكيف ساغ لهذا الرجل رفعه ؟ فصاح طالب قائلاً : قد يكون
الفعل معطوفاً علي أرجو وهو مرفوع وهنا قهقه الشيخ حتى
سقطت عصامته وهو يقول : هذه حيلة العاجز يا ولدي لأن الطربي
مترتب علي الرؤية لا علي الرجاء ^(١)

هجاءه لكافور :

وبعد هذه اللسحة العقلية الممتعة نعود ثانية لنرى كيف استطاع
المتنبي أن يهجو كافوراً بعد أن تناثر آماله وفسد ما بينهما من

(١) للشاعر الطموح ، علي الجارم ص/ ١٣٥ .

وإذ وصفاء ، نعود لنرى كيف استطاع الممتنبي أن يناقض نفسه وأن ينتقض معانيه وهو في كلا الحالتين بارع مقلد !

لقد هجا صاحبه فكان مما قال :

إني نزلت بكذابين ضيفهم • عن القرى وعن الترحال محدود^(١)
جود الرجال من الأيدي وجودهم • من اللسان فلا كانوا ولا الجود
ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم • إلا وفي يده من ثمنها عود^(٢)
من كل ربح وكاء البطن مفتق • لا في الرجال ولا النسمان معدود^(٣)
لكلما اغتال عبد السوء سيده • أو خاتمه غله في مصر تمهيد ؟
صار الخصي إمام الأبقين بها • فالخر مستعبد والعبد معبود^(٤)
نامت نواطير مصر عن ثغلبها • فقد بتمن وما تقني العناقيد^(٥)
العبد ليس لحر صالح باخ • لو أنه في ثياب الحر مولود^(٦)
لا تشتر العبد إلا والعصا معه • إن العبد لأتجاس مناك سيد^(٧)
ما كنت لحسبني أبقني إلى زمن • يسي بي فيه كلب وهو محمود
ولا توهمت أن الناس قد فقدوا • وأن مثل أبي البيضاء موجود^(٨)
وإن ذا الأسود المتقرب مشقره • تطيعه ذي العضاريط الرعادي^(٩)

أخايعي هـ المرسى لرسى لى

(١) قرى الضيف : الإحسان إليه ويقال : قرى وقراء .

(٢) يقول : إن أولخهم منتنة من اللوم ، فإذا هم الموت يقبضها لم يباشرها بيده تفرز أي عاقبتها من نتنها بل يتناولها بعدد كما ترفع للجيفة

(٣) الربح : مثنته : الهش من كل شيء ، والوكاء : رباط القرية وغيرها ، والمنفق : الموضع لكثرة لحمه ، كأنه افتتق وفتشق ومعدود بالرفع أي لا هو معدود في الرجال ولا في النساء .

(٤) الأبق : الهارب من سيده ، والاستبعاد : اتخاذ للشخص عبداً .

(٥) الناطور والناطور : حائط للكرم والنخل أصمسي والجمع : نواطير ونطار وفطراء ويقيم : اتخمت من كثرة الأكل وأراد بنواطير : مصر ساحتها وأشرافها وبثملها : اللعيب والأراذل وبالعنايد الأموال . أي كلما لكلوا شينا خلف لهم غير .

(٦) المناطيد جمع منكود : قليل الخير يعني لا يصلح إلا على المضرب والإهانة أي لني مضطر إلى حمده مع إسماعه إلى ، وللنجاسة هنا مستمارة لسوء خلق (٧) المتقرب المشقوق ، والمشر من البعير : كالشفة من الإنسان والجمع مشاقر وقد يستعمل في الناس ، والمضاريط جمع مضنوت كصفور وهو اقتابع أو الأجير الذي يخدم بطعام بطنه ، والرعايد : جمع رعديد وهو اللجان ،

جوعان يأكل من زادي ويمسكني • لكي يقال عظيم القدر مقصود
من علم الأسود المختص مكرمة • لقومه البيض لم أهله الصبر^(١)
لم أكنه في يد النخاس دامية • لم قدره وهو بالفيلسوف مردود^(٢)
أولى اللثام كويغير بمعذرة • في كل لوم وبعض العذر تنقيد^(٣)
وذلك أن الفحول البيض عاجزة • عن الجميل فكيف الخصية المنود؟

تحليل وتحلية:

- ١ -

لم يجد المتنبى من تأنقه جنوى ، بل وجد كافورا ومن حوله كاذبين
لا يحسنون إلى ضيفهم ، ولا يمكنونه من الرحيل عنهم ، وأن
إكرامهم للناس من أسنتهم لا من الأيدي كما تفعل الناس ؛ ولهذا لم
يجد بدا من المصارحة والتنفيس عن مكنونه ومكبوته ، وسيله إلى
ذلك هو الهجاء !
إن هؤلاء كما يختلف كرمهم عن الناس يختلف موتهم عن الناس
فالموت لا يقبض بيده أولحهم تقزز ألامها وكراهية لرائحتها وإنما
يباشرها كما تباشر الجيف !
وإن كافورا وصحبه من الخصيان ذوو بطون مسترخية لا وكاء
علي ما في بطونهم من ربح ، وهم سمان كأنهم فففقوا من كثرة

ويطلق أيضا على المرأة الرخصة الناصة .

(١) خصي الفحل خصاء : مثلت خصيته والخصية بالضم والكسر من أعضاء
التناسل ، والبيض : فكرام ، والصيد شجع لصيد الملك ومن يرفع رايه كبرا
(٢) الأذن بمسكون الذال ومنهما (الغتان) والنخاس بياع الدواب والرفيق ،
والدامية: هي التي تثون بالدم ، دمي الشيء فهو دام ودميت فهي دامية ،
ودامية منصوبة على الحالية والباء في (بالفلسين) متعلقة بمردود وهو خبر .
(٣) كويغير تصغير الكفور وتحقير من شأنه والتنفيد : اللوم والتفريع وتنصيف
للأري يقول : هو أحق اللثام بالعذر علي لومه وهذا العذر تفريع له ثم صرح
بالعذر في البيت الثاني :

للحلم وهم لا يلحقون بالرجال ولا بالنساء وليس لهم شيء من مقومات هؤلاء ولا هؤلاء .

والمتنبى يستكر ! كيف يُعهد للملك في مصر لعبد اغتيال سيده ؟ ويعجب لأن كافورا جمع كل خصي من حوله فهو إمام للهاربين المخالفين لأسيادهم شأنه هو إذ كان مخالفاً لسيده .

ثم ينتقل إلى غفلة سادة مصر عن أمثال كافور الذين سادوا في غفلة الزمن فشبخوا حتى اتخموا من خيرها ، وعاثوا في أموال مصر فساداً وما رُدَّهم أحد عن عيبتهم .

ثم يخلص إلى نتيجة من معاشرته للعبيد وهي : أن العبد لا يصلح لمواخاة الحر وإن أظهر له وده فهو خادع منافق كذاب ، فشتان بين خلق العبد وسيده الحر !

وأما قوله " لو أنه في ثياب الحر مولود " فهو بمثابة الاحتراس والتأكيد ، فالعبد يستحيل أن يلائم الحر حتى لو ولد حراً ، وإن عومل معاملة الأحرار فطبيعته غالب ونفسه ستحدثه بالفدر لا محالة

من أجل هذا يقرر هذه الحكمة (لا تشتتر للعبد إلا والعصا معه ...) وهو ما كان يتوقع أن يمتد به العمر إلى اليوم الذي يمدح فيه عبداً حبشياً فيكون رده عليه بالإساءة والنكران ، وهو ما كان يتوقع أيضاً أن للكرام سيفقدون ليخلفهم هذا الذي كناه " بابي الأبيض " سخريه به وزدراء لشأنه ، وما كان يتوقع أيضاً أن يكون لهذا الأسود اتباع وأعوان يصندون عن رجليه ويدينون له بالطاعة !...

وأما قوله : " جوعان يأكل من زادي ويمسكني " فربما أراد أنه كان يأكل من ماله لا من مال كافور ، ولم يسمح له كافور بالرحيل ليفخر بمدحه وليقال عنه : إنه عظيم القدر يقصده المحتاجون !

أو أن الشاعر وجد نفسه لحق بالملك من كافور فكان كافورا يأكل من زاده هو !!

من أجل هذا هو ينفي أن يكون لكافور حكمة فما قومه من الكرام ولا تباؤه من الملوك العظام ، وكيف تنسب للمكارم لحيث

للشأن سبب الخلق قبيح للنظر ما تزيده قيمته علي فليسين !... إليه
أولي اللثام بالعتذر ذلك لخسة أصله وضعة قدره وهو عذر أقبح منه
ثم يصرح بالعتذر فيقول : إذا كانت بعض الأحرار عاجزة عن فعل
المكرم ، فما بالك بالأسود الوضيع .. وصدر البيت تعريض
ببعض الأمراء الذين تركهم وجاء إلي كافور !

- ٢ -

هذا نوع من الهجاء الساخر ، وضرب من التقرير المباشر إذ جاءت
الأفكار واضحة والمعاني كاشفة لما انطوت عليه نفس شاعرنا
ولطالما أخفاه وهذا الموضوع إنما كان مرجعه لسلامة الألفاظ من
التعقيد اللفظي أو المعنوي كما سلمت من كل حوشي مهجور إلا ما
لقتضته ضرورة القافية وهو ليس بخاف علي من له بالعربية أدنى
صلة كما في قوله : (أولي اللثام كويفير بمعذرة) والتقدير : أولي
للثام بمعذرة كويفير ، وكقوله : (العبد ليس لحر صالح باخ)
والتقدير : العبد ليس باخ صالح لحر .
وواضح أن للمتنبّي أعطي لفكرة للعبد أكثر مما تستحق من الحديث
ووقف عندها طويلاً - وأنا لست معه وأراه ، يناقض نفسه - وما ذا
علي العبد لو مما بنفسه وفرض نفسه علي لمتة ؟ إنه - دون شك -
يكون جدير أجمعاً يصل إليه ، ولا يُضيره أصله ونسبه ، وقد نسي
المتنبّي أو تناسي أن تلك المشكلة مشكلته ، وأن تلك للقضية قد
لكتوي بنارها ، ولطالما اعتذر عن ضعة نسبه وأعلن عن ميده
بقوله :

ولست يقانع من كل فضل * بأن أعزى إلي جدهمام
وغير ذلك من الأبيات التي دارت حول هذا المعنى !... وما ذنب
للعبد إذا هتتاخت له الأمة من حوله !؟ لاشك أن دافع للمتنبّي هو
الحق وإن كان بينه وبين نفسه صادقاً !
وإذا علمنا أن عدة القصيدة ثلاثون بيتاً وأن فكرة للعبد وحدها قد
نالت منها عشرة أبيات علمنا مدى صدق حكمنا عليه !

وفي الأبيات تقليد لبعض السابقين سواء أكان من باب تسويد الخواطر أي مصادفة أو كان مقصوداً وتلك قضية أخرى عوالمها في هذا الصدد أنه قد في بعض معانيه فقوله في البيت الأول:

* ضيقهم عن القري وعن الترحال محدود *

يقول النابغة في معناه:

إلا متليمان إذ قال الإله له * قم في البرية فاحذوها عن القند^(١) وبيت المتنبي الثاني :

* جود الرجال من الأيدي وجودهم .. من اللسان .. *

في معناه يقول أبو تمام :

ولقل الأشياء محبسون نفوس * صحة القول والفعال مريض^(٢) وقول الطائي:

ملقى الرجاء وملقى الرجل في نفر * الجود عندهم قول بلا عمل وقول المتنبي :

لا تشتر العبد إلا والعصا معه * إن العبد لأنجاس منكيد هو من قول بشار : * الحر يلحى والعصا للعبد *

وقول الحكم بن عبد الأسد في الحماسة :

والعبد لا يطلب العلاء لا يرضيك شيئاً إلا إذا رُهِيا مثل الحمار الموقع للظهر لا * يحسن المشي إلا إذا حُزِرَيا^(٣)

وارتباط الأبيات بقائلها واضح ؛ فهو الشاعر علي حاكم مصر والمتطاول على المصريين ، وتلك مغامرة جريئة تدل على عاطفة

(١) أحدها : حبسها والقند : الخطأ في الرأي وللقول ديوان النابغة ص ٣٣ ط المكتبة الثقافية بيروت لبنان .

(٢) شرح ديوان أبي تمام شاهين ص ١٧١ ط دار الكتب العلمية بيروت .

(٣) راجع ديوان المتنبي للبرقوقي ، ومن عيون الأندلس - محمد كامل الفقي .

حارة ، وهجاؤه للاذع لكافور بعد مدح طويل إنما يؤكد ذاتية الأفكار والتصليقها بقاتلها أيما للتصاق فلا يعود على المجتمع منها شيء ولا تمت إلى الإنسانية أو الوطنية بسبب !
وبواصت للحقد في الأبيات واضح وبغضه لكافور أمر ظاهر وهذا ما دفعه لأن يسرف في هجائه ، وأ ، يبالغ في معانيه إلى حد الإسفاف حيناً أو للسطحية حيناً آخر ، ومن ذلك ما ادعاه من أن ملك الموت لا يباشر أولادهم بيده كعادته في قبض الأرواح وإنما يتناولها يعود حتى لا يتأذى من رائحتها ، وما ادعاه أيضاً من أن بطونهم لا وكاء عليها ، وما ادعاه من أنهم لا يعمدون في الرجال ولا في النسوان .. !

وقد كشفت الأبيات عن الحالة السياسية في مصر ، فالسادة أصحاب الرأي في غفلة عن صالح مصر مما هيأ للفرصة للعبيد كي يسودوا في تلك الحقبة وفي غفلة الزمن ، ومصر غنية لا تفتني عنقيدها وأن للحر فيها مستعبد والعبد معبود إلي آخر ما كشفت عنه الأبيات !

- ٥ -

وعاطفة الشاعر هنا : صدقة فهو كما - ذكرنا - ثائر ساخط ،
أظهر شيئاً طاماً وأرى عنه وأخفاه ، ويحدثنا الدكتور طه حسين هاتين للحالتين المتناقضتين فيقول : " إن صدق ما قاله في الهجاء فقد كذب ما قاله في المدح ، وإن صدق ما قاله في المدح فقد كذب ما قاله في الهجاء وهو مع ذلك صادق عندنا في الحالين بشرط أن نفهمه على وجه لا كما يجب .. فقد كان صادقاً حين مدح كافورا ، وكان كاذباً في الوقت نفسه ، كان صادقاً حين أراد المدح ولم يرد غيره ، وكان كاذباً لأنه لم يمدح عن عيّن ولا عن يمان ، وإنما مدح عن رغبة وطمع فقال غير ما يعتقد ، ولقي بغير ما يرى وهو كذلك صادق كاذب في هجائه :- صادق لأنه كان يهجو عن غضب وسخط وبغض ، وكاذب لأنه كان يقول غير الحق ، ويذيع في هذا الأمر من السيئات ما كان يكذب فيما بينه وبين نفسه إذا

خلا إليها وما أكثر الأحوال التي يفرض فيها علينا لبحث الصحيح أن نثبم الشعراء والمتاب فيما يتحدثون به عن أنفسهم ما دحين أو قانحين .. وليس يطلب من الشاعر حين يهجو ، ويرع في التشهير به ، يطلب إليه أن يثبث الإساءة إلى من يهجو ، ويبرع في التشهير به ، والتشنيع عليه فاما أن يكون صادقاً أو كاذباً ، ولما أن يكون مرضياً للأخلاق أو مخالفاً عن أمرها وقانونها فهذا شيء لا يعني الفن بحال من الأحوال ، وقد كذب الفرزدق علي جرير وكذب جرير علي الفرزدق وكذب غير الشعارين عليهما وقضى لهؤلاء بالبراعة في الهجاء ^(١)

- ٦ -

أسلوب المتنبي: هنا في أبيات الهجاء أقوى وأجزل منه في أبيات المدح ، وكذلك في صوره وكتابات ، ولعل مرجع الضعفاء أنها كانت صدى لنفسية قلقة لاهثة لم تجد راحتها بعد ، وإذا كان الأسلوب يستمد قوته وجزالته من عاطفة صاحبه وشعوره ، فإن الغيظ والبغض الذي تلتقي في صدر أبي الطيب زاد في قوة أسلوبه ، كما زاد من جزالته وحدته ، فبدأ ناقصاً ساخرأ يثير الضحك حيناً والإشفاق حيناً آخر ، ولذلك كان المتنبي أكثر توفيقاً وابتداعاً لقلة الشعري في هجائه عنه في مدحه إذا قورن بينهما. ويحسن القارئ بحرك دانيبين الألفاظ والتركيب ، ويتمثل هذا فيما وفق إليه الشاعر من صور بدينية كالمجاز العقلي في (الموت يقبض ، ويستقتر ، ويعف فيفعل ذلك يعود) ، والثعالب مستعارة (للأرازل) والنوطير: مستعارة (للسادة) وفيها إشارة إلى وصفهم بالأصنام التي لا حسن فيها والمجاز المرسل في العناقيد التي عبر بها عن الأموال وتجسيد المعنى وهو معرض بكافور فيجسد سواد بشرته وتشقى مشفره ، وأنه الدامية ورخص ثمنه وثقاته ، فلوزيد علي ثمنه فلسين لما أشتري لخسته .

(١) مع المتنبي - جلد حسين ٣٠٣ - ٣٠٤ .

وأرى بعض النقل في بعض الكلمات وكأنه مقصود ليمعن قارئها
النظر في معناها كما في كلمة المضاريط ، وكويفير والتقديم
والتأخير في :
(العبد ليس لحر صالح باخ) ، (لوي للنام كويفير بمعذرة)

ويعد: فالمتنبى ولحد من الشعراء الذين " إن أعطوا منها رضو ،
وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون " ، فهو لا يندفع للمدح إلا من
وراء الأمل ، ولا ينساق للهجو إلا مع اليأس وكم في التاريخ من
شعراء كانوا عشاقاً لمن أدنوههم وغمرهم بالعطايا وأعداء لمن
جفوههم ونأوا بجائتهم عنهم ومن الشعراء من كان ينخل علي
ممدوحه وفي جيبه أبيات تمدح وآخرى قدح ليقدح كلا منهما في
الوقت المناسب ، ولئما كان حكمنا علي أخلاق المتنبى فلا ينسى
الناقد أن ينسب له الإبداع في جولة المدح ، وجولة الهجاء ، فتلذذ
قدرة فنية لا يصل إليها إلا من له تلك الموهبة الفاتحة وإن شئت
فارجع البصر كرتين إلي تلك المقابلات والعكسيات التي برز لكل
منها ، فهذا هو القائل لمالك مصر مانحاً :
وأخلاق كافور إذا شئت مدحاً * وإلم أشأ تملي علي واكتب
تزيد عطايا علي اللآلئ كثرة * وتلبث لمواه السماء فتتضرب
ثم لحظ علي وهو يقول له حاجيا :
إني نزلت بكذابين ضيفهم * عن القرى وعن الترحال محنود
جود الرجال من الأيدي وجودهم * من اللسان فلا كانوا ولا للجود
جوعان يأكل من زادي ويمسكتي * لكي يقال عظيم القدر مقصود

ونظر إلي وهو يبرر لاستيلاء كافور علي عرش مصر فيقول :
ولنت الذي ربيت ذا الملك مرضعاً * وإليس له لم هناك ولا لب
وكننت له لبث العرين لشبـله * وما لك إلا الهندواني مخلب
ثم يأتي بتقيض ذلك ويبرر له أيضاً فيقول
لكلما احتال عبد السوء سيده * أو خانه فله في مصر تمهيد ؟
صار الخصي إمام الأيقين بها * فالحر مستعبد والعبد معبود

لا تشتر العبد إلا وللعصا معه * إن العبيد لأتجاس مناكوسد
ولنظر إليه وهو يعرض لنفسه وأصله مادحا فيقول :
ويخنيك عما ينسب الناس أنه * إليك تناهي المكرمات وتنسب
وأي قبيل يستحقك قسدره * معد بن عدنان فذاك ويعرب
والاستفهام في البيت الثاني إنكاري أي لا يستحقك قدر قبيل من
الناس فإنهم جميعا دونك

ثم يقلب المعنى تماما ويهيمه فيقول :
ما كنت لحسبتي أبقى إلى زمن * يسيء بي فيه كلب وهو محمود
ولا توهمت أن الناس قد فقدوا * وأن أبا البيضاء موجود
من علم الأسود للمخصي مكرمة * لقومه البيض أم أباه للصيد؟
أم أنه في يد النخاس دامية * أم قدره وهو بالقلمين مردود

أريت كيف استطاع المتنبى أن يناقض نفسه وينتقض معانيه وأن
يقول الشيء وضده ، وأن يبرر لكل منهما ؟ تلك هي طلاقة المتنبى
لشاعرية التي راعت الأبعاد وأدهشت للفكر وجذبت الأنظار
وهذا ما قصدناه ونحن نعرض لمعنى الشاعرية عنده

جدي المجاء وما ترتبه عليه :

كان رد فعل كافور علي هجاء المتنبى له أن حدد إقامته ، وسلبه
حريته ، فتداعت عليه العلل والكوارث ولتصرف عنه الناس
أرضاء للحاكم ، ومجاملة لذوي السلطان ! وراح المتنبى يلوم
الحاقدين ويكشف خسة المتجاهلين ، ونفاق المرابطين . وكان من أثر
ذلك كله قصيدته الميمية الرائعة التي أنشأها عام ٣٤٨هـ ، وفيها
يعرض بكافور الذي غرر به وجر عليه العال ولاسيما الحمى التي

أصابته بمصر ورغم ما هو فيه هو لا يفتأ معتزاً بشخصيته ،
مفتخراً بنفسه وأفعاله فيقول بعنوان : من للجمام إلى للجمام :^(١)

- ١ -

ملومكما يجبل عن المـسلام • ووقع فعالة فوق الكلام^(٢)
ذرائسي والفلالة بلا دليل • ووجهي والهجير بلا لثام^(٣)
فإنني أستريح بذي وهذا • ولتعب با لإناخه والمقام^(٤)
عيون رواجلي إن حيرت عيني • وكل بُغام رازحة بُغامي^(٥)
فقد أزد المصياه بغير هاد • سوي عدي لها برق الخمام^(٦)
يُذم لمهجتي ربي وسيفي • إذا احتاج الوحيد إلى الثمام^(٧)
ولا ألمسي لأهل اللخل ضيفاً • وليس قرى سوى مخ النعام^(٨)

- ٢ -

ولما صار ودٌ للناس خيلاً • جزيتُ علي ابتسام بابتسام^(٩)
وصرت أشكُ فيمن أصطفيه • لعلمي أنه بعض الأكام

(١) للديوان ص ٤٨٢ ط دار بيروت .

(٢) المَلُوم من يلومه الناس، وهو يعني نفسه ، ويجل : يعلو والفعال بفتح الفاء

: للعلل الكريم ، فوق الكلام : فوق للنقد أو للجراحات أو كلام القاتلين .

(٣) ذرائسي : ترككتني ، الفلانة : للصحرَاء الواسعة -مفعول معه -ووجهي :

صطف علي ليأب من ذرائسي ، والهجير : حر نصف النهار معطوف علي الفلانة

(٤) الإشارة بذي إلى الفلانة وبهذا إلى الهجير الإناخة : للنزول -وللمقام الإقامة

(٥) الرواحل : القنابق عولبغام : صوت الناقه إذا قطعت للحنين ولم تمده من

للتعب ، الرازحة المنهكة المسقطه من التعب والإجهاد .

(٦) عد البرق : إشارة إلى ما كانت تفعل للحرب فإنهم كانوا يشيرون بالبرق فإذا

لمع أو برق سبعين مرة وقيل : مائة مرة فتقلوا ولم يبعثوا رعداً لمقتهم بالمطر

يقول : إنه يفعل كذلك فلا حاجة إلى دليل له .

(٧) يذم له : يعطيه الذمة وهي العهد .

(٨) للمخ : نقي السمّام (ويعرف بالنخاع) يقول : لا ألمسي ضيفاً للبخيل وإن

لم يكن لي زاد لثبته لأن النعام لا مخ له وروي مع النعام بالحاء المهملة .

(٩) الخيب : الخداع ، أي لم تست لمهم كما يتسمون لي من باب المُجَاراة

يحب العاقلون علي الثماني * وحب الجاهلين علي الوسام^(١)
 وتنف من أخي لأبي وأمي * إذا مالم أجد من الكرام^(٢)
 أرى الأجداد تغلبها جميعا * علي الأولاد أخلاق اللثام^(٣)
 ولست بقانع من كل فضيل * بأن أعزى إلي جذ همام^(٤)
 عجبتم لمن له قد وحده * وينبو نبوة القضم الكهام^(٥)
 ومن يجد الطريق إلي المعالي * فلا ينز للمطى بلا منام^(٦)
 ولم أر في عيوب الناس شيئا * كنقص القادرين علي الثمام

- ٣ -

لقت بأرض مصر فلا وراني * تخب بي المطى ولا أمامي^(٧)
 ومائتي للفراش وكان جنبي * يمل لقاءه في كل عام^(٨)
 قليل عاندي سقم فيوادي * كثير حاسدي صعب مرامي
 قليل الجسم ممتنع القيام * شديد السكر من غير المدام

وزنرتي كأن بها حياة * فليس تزور إلا في الظلام
 بذلت لها المطارف والحشايا * فعافتها وباتت في عظامي^(٩)

(١) الوسام والوسامة حسن الصورة .

(٢) تنف : استنكف .

(٣) اللثام : جمع لنثم وهو الدنيء الأصل للشيخ يعني : إذا لومت الأخلاق
 غلبت الأصل الكريم فيكون الولد لنثما وإن كان أجداده من الكرام .

(٤) القانع : الزاهد المستكفي ، وأعزى أنسب ، وهمام : العظيم الهمة يعني : إذا
 لم يكن فاضلا بنفسه لم ينفعني فضل جدي .

(٥) القضم : القوام والحد : اللباس والقضم من السيوف : القتل المتكلم والكهام ما
 لا يقطع من سيف وغيره .

(٦) بلا منام أي مُعدة للرحيل ، والمعالي : جمع العلا والمنعلة : الرفعة

(٧) تخب من الخبيب وهو : نوع من العدو .

(٨) يريد أن طال مرضه حتى مله الفراش بعد أن كان هو يمل الفراش ولو
 لقيه مرة في كل عام .

(٩) للمطارف : جمع مطرط : وهو رداء مخطط من خز أو حرير والحشايا
 جمع حشوة وهي الفراش الذي يحشى بالقطن أو غيره .

يضيق الجلد عن نفسي وعنها • فتوسعه بأنواع السقام
 إذا ما فارقتني غسلتني • كأننا عاكفان علي حرام
 كأن الصبح يطردها فتجري • مدامعها بأربعة سقام^(١)
 أراقب وقتها من غير شوق • مراقبة المشوق المستهام^(٢)
 ويصدق وعدّها والصدق شر • إذا ألقاك في الكرب العظام
 أينت الدهر عندي كل بنت • فكيف وصلت أنت من الزحام؟
 جرحت مجرّحا لم يبق فيه • مكان للسيف ولا السهام
 ألا ياليت شعر يدي ألمسي • تنصرفت في عنان أو زمام^(٣)
 وهل أرمي هواي برقصات • محلاة للمقاود باللغام^(٤)
 فريتما شغيت غليل صدري • بسير أو قنّاء أو حسام
 وضائق خطة فخلصت منها • خلاص الخمر من نسج القدام^(٥)
 وفارقت الحبيب بلا وداع • وودعت البلاد بلا سلام

يقول لي الطبيب أكلت شيئا • وداؤك في شراك والمشام
 وما في طبعه ألي جـسـود • أضرت بجسمه طول الجمام^(٦)

(١) السقام بكسر السين وفتحها التمع إذا مال فهي منسكة والمراد: مجاري التمع الأربعة: (الموقان وهي في مقدم العين، وللحافظان في مؤخرها) فالتمع يجري من الموقان فإذا كثر جرى من الحافظ.

(٢) أراقب: أترقب والمشوق: المشتاق والمستهام: الهائم على وجهه في الأرض المتحير من عشق ونحوه.

(٣) العنان: لجام القرس والزمام للإبل يقول: ليت يدي تعلم هل تنصرف بعد هذا في عنان فرس أو زمام ناقة يعني هل أتعافى وأسافر على الخيل والإبل؟

(٤) إيل رقصات أي تثير الرقص وهو ضرب من الخبيب مثل القفز واللغام: الزيد يقذفه البحر من فمه أي: وهل أقصد ما أهواه بإيل هذه صفاتها؟

(٥) الخطة: الأمر القدام: ما يجعل علي فم الإبريق ليصفى به ما فيه يقول: وربما ضائق علي أمر فخلصت منه كما تخلص الخمر من النسيج الذي تقدم به أفواه الأباريق.

(٦) الجواد: القرس للكرم الجمام: الراحة أي يظن الطبيب أن سبب مرضي الطعام والشراب ولا يعلم أنه من طول الإقامة والقعود عن الأسفار كالقوس الجواد إذا طال إقامة في المرابط أضربه

تعوّد أن يغير في السرايا • ويدخل من قتام في قَتَام^(١)
فأمسك لا يطال له فيرعسي • ولا هو في التعليق ولا للجام^(٢)
فإن أمراض فما مرض اصطباري • وأن لحُم فما حُم اعترامي^(٣)
وأن أسلم فما أيقسي ولكن • سلمت من الحمام إلى الحمام^(٤)
تمتع من سهاد أو رَقَّاد • ولا تأمل كري تحت الرّجام^(٥)
فإن لثالث الحالين معنسي • سوي معني انتباهك والمنام^(٦)
تحليل وتعليق :

- ١ -

بدأ الشاعر قصيدته وهو ضائق صدرًا ولذا يقول لصاحبيه اللذين
يلومانه على المخاطرة وتجشم الأسفار [طلب للمعالي :
(ملومكما) يقصد نفسه أي هو أجل من أن يلام ، وأفعاله الأكرمة
فوق مستوى الشبهات والجراحات
ثم تتضاعف ثورته فيعلن كراهيته للإقامة بينهم ، واستعداده لأن
يضرب في جوف الصحراء المهلكة دون انتظار دليل أو رفيق
يؤنسه أو يرشده فيقول : (في البيت الثاني) اتركاني مع الفلاة فإني
أسلكها بغير دليل ، اتركاني مع الهجير أسير فيه بغير لثام على
وجهي (والفلاة والهجير منصوبان على المفعولية) ثم يعلل لذلك
بقوله : [فإني أستريح بذي وهذا] بالفلاة والهجير وأتعب بالإقامة
والخمول !

(١) القَتَام: الخبار ، والمراد بجمع سرية وهي التي تسري إلى المعنو
(٢) التضمير في أمسك للجواد ، وقوله : لا يطال له أي لا يرضى له الطول وهو
حبل طويل تشد به قائمة الدابة ، ترسل به في المراعى .
(٣) اصطباري : صبري ، واعتزامي : عزيمتي .
(٤) السهاد : السهر ، والرقاد والكري : التماس أرك : للنوم ، والرّجام للحجر
الضخم يوضع على القبر أي القبر واحد : رجم أو رجمة ومنه قول عبد الله
بن مغفل : لا ترجموا قيري أي لا تجعلوا عليه الرجم أي لا تشتموه بل سوه
بالأرض .
(٥) يريد بثالث الحالين : الموت وهو خير حال للسهر والنوم .

والشاعر بعد بأسه من ألمه وعدم ثقته فيمن حوله من الناس يرى
 لصطحاب ما هو أفضل ولو في ولقرب إلى نفسه : منها رولحه
 التي يبصر بعينها الصادقتين إن اختلط عليه الطريق ، وهي التي
 تهديه أيضاً بصوتها إن ضل مسالك الصحراء ، قال ابن فورجة :
 يريد أنه بدوي عارف بدلالات النجوم بالليل فيقول : إن تحيرت في
 المغارة فعيني البصيرة عين راحلتي ومنطقي الفصيح هو يغلماها ،
 وهو لا يحتاج في ورد الماء إلى دليل بئله سوى أن يعد برق
 الغمام فيتيحه على عادة العزب في عده بروق الغمام قال ابن
 الأعرابي في النواثر : " للعرب كانوا إذا البرق عدوا سبعين برقة
 فإذا كملت وثقوا بأنه برق ماطر فرحلوا يطلبون موضع الغيث ،
 وأنشد عمر بن الأعرور :

سقى الله جيراناً حمدت جوارهم * كراماً إذا غدوا وفوق كرام
 يعدون برق المزن في كل مهمة * فما رزقهم إلا بروق غمام
 والملتني شجاع لا يحتاج إلي من يحميه ويوفر له الأمان فقد اتخذ
 من ربه وسيفه حامياً له فهو في كتف الله وجوار سيفه .
 وهو كريم عفيف لا يحط برحله إلا على الكرماء ويروى السبب

(سوي مع النعام) بالحاء أي لو لم يكن لي قري إلا بيض النعام
 شربت ولا أتى بخيلا أنصيف به ، ويمكن أن نضع لهذه الأبيات
 السبعة عنواناً هو : (عزّة وإباء)

- ٢ -

ثم تهيج ثورة الممتني الذي لا يعرف للمداراة ولا المداينة فهذا في
 رأيه نفاق ورياء ؛ ولذا هو يعلن عن نفسه وفلسفته الذاتية فيقول :
 فلما صار ودّ الناس خبا (غير صادق) أخفيت ما تطلعت عليه
 نفسي فإذا أبتسم لي لأحدهم ابتسمت له ضجراً ، وفي الأبيات دليل
 يؤكد رفضه لصطحاب أحد من البشر ، فالتك أصبح يلازمه ؛ ذلك
 لأن البشر ينتسبون إلي فصيلة واحدة ، وهو لم يعد على ثقة من
 مودة أحد حتى ممن يصطفيه لعلمه أنه من جملة الناس وبعبارة

أخرى: لعموم فساد الخلق في رايه ، ثم يقول إن العاقل يبني حبه علي صفاء الود ، فمن أصفى له الود أحبه ، أما الجاهل فهو يحب علي جمال الصورة ، وليس كل جميل النظر يستحق المحبة ، وهذا النوع من العلاقات هو يكرهه حتى ولو كان مع أخيه الشقيق ، ولا عجب في اختلاف الأخوين في الهوى والاتجاه ، فهو يفيض أخاه إذا لم يجده كريما والفضائل التي يرثها الأبناء عن الآباء والأجداد كثيرا ما تتغلب عليها رذائل مكتسبة من فساد المجتمع ، ولربما غلب اللؤم الأصل للكرام ، يقول حكيم في هذا المعنى :

أبوك أبي والجد لاشك واحد * ولكننا مختلفان أس وخروج
ويقول آخر :

أبوك أب حر ولأمك حر * وقد ولد للحران غير نجيب
ويقول آخر :

لئن فخرت بأبائك لهم شرفا * لقد صدقت ولكن بنس ما ولدا

من أجل ذلك كله هو لا يقتنع بأن ينسب إلي المجد عن طريق جاه موروث وجذ معظم فيكون بذلك عالة علي مفاخر الآباء والأجداد بل هو فاضل بنفسه ، وهو يتعجب ممن له حد للنصل وقد الرجال ثم لا ينفذ في الأمور ولا يكون ما ضيا أي قاطعا في أمره من أجل ذلك هو يدفع بدم جديد في عروق أمته العربية وهي مبعث فخره واعتزازه

وهو يرى أنه لاجب يشين المرء أبلغ من عيب من استطاع أن يكون كاملا في الفضل ثم لم يعمل لذلك ، ولا عذر له في ترك الكمال إذا قدر علي ذلك ثم تركه ، ويمكن أن نضع معاني تلك الأبيات تحت عنوان : (ثورة علي المنافقين)

- ٣ -

قصة مرضه :

أما الأبيات من ١٧-٢٠ فهي تصور نفسية للمتنبئ بعدما سدد عليه كافور منافذ الرجاء وللأمل فأصبح هدفاً للمرضى والأوهام ثم يوضح ذلك فيذكر أن مرضه قد طال حتى مله الفراش بعد ما كان جنبه هو الذي يمل الفراش ويتجافاه ولو كان مرة في العام ، وقد زاد من همومه لتصرف الأصناف عنه فهذا الصنف من الناس علي هوى ملوكهم بيد أنه يرجع موقف الناس منه إلي عظمتهم التي جرت عليه الحصاد ثم يعود ليصف ولقعه الأليم فهو عليل الجسم ، ممتنع للقيام سكران من غير خمر .

وأما الأبيات من ٢١-٢٧ فهي توضيح لمصادر الألم ، فقد أصابته الحمى بمصر ، وهو أسماها ببنت الدهر لأن الناس ينسبون المصائب والشدائد إلي الدهر ، وهو يبين أثرها في جسمه ، فيذكر أنها تبيت في عظامه ، وهو يحاول دفعها ببذل فاخر الثياب بيد أنها تأتي إلا أن تبيت في عظامه ولا سيما وجهه الذي لا تهجره الحمى إلا إذا تصيب عرقاً ، وكان للعرق دموعها التي تسكبها لمطاردة الصبح لها ، فهي لا تفارقه إلا كارهة ؛ ولذا فإنه يراقب العودة في غير شوق وشتان ما بين مشتاق وغير مشتاق ، فالمرضى إنما يجزع لورود الحمى فهو يراقب وقتها خوفاً لا شوقاً ، والعجيب أنها لا تخلف وعدماً فهي صادقة الوعد ، وهو شر من الكذب لأنه صدق بضر ، كمن أوعد ثم صدق في وعده .

- ٤ -

من أجل هذا يخاطب الحمى مستعطفاً لها بقوله : أبيت الدهر عندي كل بنت فكيف وصلت إلي من الزحام ؟ إن الشدائد قد تزلحت عندي بيد أنك استطعت اقتحام الكوارث إنني لتساعل متعجباً ألم يمتنعك هذا الزحام من الوصول إلي ؟ لقد جرححت رجلاً فوق جراحه حتى لم يبق في جسمه مكان لجرح وذلك من كثرة خوضه للحروب ثم يعود فيرجو للشفاء منها بقوله : يا ليت يدي علمت هل تتصرف بعد هذا في عنان الفرس ؟ أو زمام الإبل إنه يتمنى أن يصل إلي هدفه علي إبل نشطة فإن هذا للشفاء سيمكن له من أن

يشفي غليل صدره من أصدائه بمختلف أسلحة الانتقام كما أن برءه من مرضه سيتيح له التخلص من العقبات والأزمات لأنه خبير بطرق الخلاص منها وهو تصوير لما كان عليه من نشاط إذ كان خلاصه في كل ضيق خلاص الخمر من نسج القدام ، ثم بنوءه بالخلاص من كافور بقوله : وفارقت الحبيب بلا وداع ... سخريه به لقد هرب من أشياء كرهها فلم يقدر علي توديع الحبيب ولا أن يسلم علي أهل البلد الذي هرب منه ، ويمكن أن يكون عنوان هذه الأبيات (حوار واستعطاف)

ولخيراً يتهم بالطبيب الذي شخص مرضه فأرجع سببه إلي كثرة الطعام والشرب ، ولم يفتن إلي حالته النفسية البائسة ، فالذي أضرب جسمه إنما هو طول لبثه في مكان واحد ، وقعوده عن السفر الذي طالما تعود ، فهو جواد يضرب جسمه طول القعود ، لقد تعود أن يخرج من حرب إلي أخرى ، ولكنه في ظل كافور قد منع الحركة وحرم الحرية بيد أن ذلك لم يفت من عزمته ، فهو يدعو إلي الاستمتاع بالحياة علي كل حال ثم يعلن بأن في الشهاد متعة للتأمل والتفكير وفي الرقاد متعة الراحة من العناء ، أما القبر فليست فيه هذه المتعة ولا تلك لأنه يختلف عن الشهاد والرقاد وهو المراد بالحال الثالثة أو ثالث الحالين ، وفكرة هذه الأبيات طيبة يمكن أن تكون هي عنواناً للأبيات من ٣٥-٤٢ (بين الشهاد والرقاد)

الألفاظ والأساليب البلاغية :

أول ما نلاحظه في القصيدة هو : خطابها لاثنتين علي عادة الشعراء قديماً وكذا التصريح في البيت الأول ، كما حرص علي عدم التصريح باسم المعلوم والفرض البلاغي منه هو الاستعلاء علي اللاتمين ، والإجلال لأقواله وتصرفاته ، والبيت الثاني : كناية عن ضيقه بمصر وأهلها والكناية توحى بحالته النفسية السيئة ، وفي البيت الثالث تشخيص حيث أطلق للحيوان وهو يشاركها وتشاركه مشاعره ولحاسيسه ، وزاد من جمال للصورة ذلك الطباق بين

(استريح وأتعب) ، و (الإناخة والمقام) وفي البيت الرابع شبه نفسه بالبهيمة في الحيرة ، فهو لا يدري أين يذهب ؟ ويمكن أن يكون للمعنى : عيون رواحلي تنوب عني إذا ضللت أجهدي بها ، وصوتها يقوم مقام صوتي إذا احتجت إلي أن أصوت ليسمع الحي (ولا تخفي الاستعارة في بُغام الراححة المنهكة) وفي قري (مخ للنعام) كناية طريفة عن اللبخل . أما الأبيات التي ثار فيها علي المناقشين : فإنما كانت تعريضاً ببخل كافر وحاشيته وقد فقد عندهم جلّ أماله ، وفي البيت العاشر : (مقابلة طريفة) صاحبها لحنٌ جذاب بين شطري البيت :

(يحب العاقلون علي التصافي) • وحب الجاهلين علي الوسام والبيت الحادي عشر : يحتاج إلي إعادة نظر : فهو يقول : وأنف من أخي لأبي وأمي ... حيث يمكن استخدام كلمة شقيق بدلا من أبي وأمي ، وبهذا يمكن أن يقول الشاعر (وأنف من أخي وكذا شقيقي) لتوسيع دائرة من يأنف منهم ، وللتدرج في إيائه وأنفته فيكون متعاليا علي أخيه لأبيه أو لأخيه لأمه وكذلك متعاليا علي أخيه الشقيق الذي هو أقرب .

وكذلك عاب عليه النقاد استخدام كلمة (كل) في قوله : وكست بقاتع من كل فضل • . بأن أعزى إلي جنه همام لأن مجيئها في سياق النفي يحولها من الكلية إلي البعضية ويكون المعنى : أنه يفتن ببعض أنواع الفضل وبذلك يحد من طموح نفسه إلي كل أنواع الفضل فتضعف المبالغة وتضعف معها صورته الأخاذة التي لم يكن يريد لها ذلك . وأما كلمة (قد) في قوله :

عجبت لمن له قد وحد • . وينبو نبوة القضم الكهام يمكن أن تكون بمعنى القطع أو القوام والمعنى الأول : يعني به السيف ، والثاني غير مراد بالمرّة إذ القوام لا يستخدم إلا في الغزل بقوام النساء ؛ ولذا كانت هذه الكلمة سببا في نشاز الجنس في البيت ، وهو يرمز إلي فقدان الآمال عند كافر بقوله : أقمت بأرض مصر فلا ورثني • تخب بي المعطي ولا أمامي

وقد أعان علي جمال التصوير ذلك الطباق بين (ورائي وأمامي)
وحسن التقسيم واضح في كثير من الأبيات ، وهذا كله من البديع
غير المتكلف الذي يغني علي وضوح المعنى وقبوله ، ثم يبلغ
المتنبى قمة التوفيق البلاغي والتصوير البياني حين يصور الحمى
بمعشوقة تزوره علي استحياء وتتخذ من ظلام الليل ستارة تتسلل
من ورائها إلي عاشقها خوف الرقباء والمعدال فيقول :

وزائرتي كأن بها حياء * فليس تزور إلا في الظلام
وهو يحاول الخلاص منها ببذل فاخر الثياب والفرش بيد أنها تدل
عليه وتأبى إلا أن تتام في جسمه وأن تمتزج بعظامه ، فهي لا تقنع
بالشحم واللحم لتتعم به وتهنأ بقربه ... وهكذا يضيفي خياله
الخصب علي الحمى صور المعشوقة الوالهة تارة ولخرى بصورها
امرأة محرمة عليه اغتسلا بعد لقائهما فهو يتصيب عرقاً عند فراقها
كأنه مغتسل وإنما خصن الحرام بالذكر : إما للغافية وإما لأنه جعلها
غريبة عنه فليست زوجة ولا مملوكة ، وإلا فالجماع علي الحلال
كالجماع علي الحرام في وجوب الغسل ، وهو علي كل حال تعليل
حسن من الشاعر والغسل مبالغة مقبولة .

ونعجب لهذه المرأة الوالهة إذ العاشقات يتكلن بخلف الوعد والتناقل
ليزداد العاشق تعلقاً ، ولكنها متهاكة عليه إذا فارقت ترقبت المساء
لتعاوده الزيارة ، وقد برع الشاعر في استعطافه لها كي تتخفف في
الزيارة وقد بالغ في التضرع واللين فنادها بالهمزة التي تشعرها
بالقرب من قلبه (أبنت الدهر ..) وعبر بينت الدهر ليشعر بالعموم
والكثرة الكثيرة من شدة اند الزمان وهو يستنكر هذا كله بأسلوب
إنشائي واستفهام تعجبي بلغ غاية التأثير

ومن الأساليب المبتكرة التي جاء بها الشاعر قوله :
ألا ليت شعر يدي أتمسي ... فالتعبير المألوف (ليت شعري)
وليت شعر يدي تشخيص لليد حيث جرّد منها إنساناً له أحاسيسه
ومشاعره المستقلة ، ولكن لماذا خصّ اليد بالذكر ؟ لعل أثار
المرض كانت علي يده أظهر من بقايا أعضاء الجسم فعلق الأمل
عليها بعد أن فقدته فيها . وقوله :

وهل أرمي هواي برأقصصات • محلاة للمقاود باللغام
وفيه يجعل هواه صيداً شارداً وإليه سهاًما يصوبها حيث تحمله إلي
هذه في زشاقة وجمال الرأقصات الفاتنات وقد جعل المقاود عقوداً
ذهبية واللغام خيوطاً فضية كل ذلك يزين الإبل ، ولكن هل يرضي
النوق الحديث عن تشبيه لغام الإبل بالخيوط الفضية ؟؟
أعتقد أن مثل هذا التشبيه أصبح ممجوجاً ، كما رفض النقاد تشبيهها
قريباً من ذلك في قول الشاعر (محمود أبو الوفا) :
إذا تحدثت سال الطرف من فمه • وإن يحدث تراه مطرق الرأس

وعبارات السخرية والتهكم بكافور واضحة وقد لجأ الشاعر إلي
الرمز في الأبيات (٣٥-٣٣) فقد رمز إليه بالحبيب وقد أعانته
علي السخرية ما وفق إليه من (طباق السلب) كما تهكم بالطبيب
الذي اعتقد أن سبب مرضه يرجع إلي الطعام والشراب ، ثم أفصح
هو عن علته الحقيقية وهي حبسه عن السفر وعن التجوال في
المعارك ، ولهذا نجد المبالغة المحمودة في قوله : " ويدخل من قتام
في قتام " وكان أيامه موصولة بين الحروب ، كما أنه عرض
مأساته في مقابلة ممتدة بين حاله من خلال بيته (٣٧-٣٨) وهو
هنا قابل بين الفخر بنفسه مع اليأس والحسرة وعلي كل حال
فالأبيات جمعت بين جمال اللفظ وجمال الفكرة معا
إن الشاعر فرق بين حالات ثلاثة لا تخرج البشرية عنها ولا يفتن
إلي الفرق بين لذة كل منهما إلا القليل ، فليقطة وللطاقة المستغلة
في موضعها لذة ، وللراحة النامة (النوم) بعد الجهد لذة لذة ،
ولا يكون هذا إلا في الحياة أما راحة القبر فهذا عالم ثالث
وقد أعان الشاعر علي جمال اللفظ ما وفق إليه من طباق السلب في
البيتين (٣٩-٤٠) وطباق الإيجاب في البيتين الأخيرين



والأفكار :- كما هو واضح - ذاتية بحث لا تمتد إلى الإنسانية ، وإنما هي صورة لتجربة شعرية انفعلي الشاعر بالأمها وعاش أحداثها حساً ووجداناً فهي معاناة لواقعه المرير وصدى لمرضه الأليم ، وأفكاره لا مسرف فيها ولا إغراب ولذلك جاءت بارعة ملهمة مترابطة متماسكة وهذا ما يسميه النقاد (بالوحدة الفنية) أو العضوية وقد حملت تلك التجربة بين طياتها النار والنور : الأول على الأعداء والآخر هداية للأحياء وهو في تجربته الذاتية قدوة حسنة تعلم المصاب كيف يعيش على نور الأمل كما توجه الكسالى إلى روح الحياة بما فيها من معنلي الحياة (من الهمة والعظمة والنشاط والإباء)

وعاطفة الشاعر : واضحة الصديق : فهي تجربة عاشها بعواطفه وعانها بقلبه وامتزجت بوجدانه وقد عبر عنها تعبيراً يكشف عن حزنه ومرضه ، فهو صادق وهو يجمل نفسه عن الملام صادق في شجاعته وهو يثور على المنافقين من حوله ، صادق وهو يشك في فصيلة البشر حتى في أقرب الناس إليه ، صادق في تعريضه بكافور وحاشيته ، صادق وهو يشكو من مرضه ، ويسخر بطبيبه صادق وهو يرجع أسباب مرضيه إلى حالته النفسية التي انتهت به إلى اليأس والقنوط بعد أن سد عليه كافور منافذ الأمل ، والرجاء بيد أنه يتظاهر بالتجمل لأحداث الزمان .

ومن يقرأ قوله :

لبننت الدهر عند كل بنسنت * فكيف وصلت أنت من الزحام
ثم يتأمل ما قاله في رثاء أم سيف الدولة :
رماني الدهر بالأرزاء حتى * فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام * تكسرت النصال علي النصال

وهان فما أبالي بالرزاقيا * لأنني ما انتفعت بأن أبالي
 يثق بأن معني الحزن متصل بنفس الشاعر ، متبثق من خواطره
 الذاتية فالأبيات لا تصور شاعراً حزينا لفراق أم سيف الدولة بقدر
 ما تلقى ظلالاً علي نفس الشاعر الخاصة وتوحي بأن حياته العامة
 عصفت بها الألام ، وفلجأتها الأقدار ، كما توحي بمذهبه في الحياة
 والنتيجة التي ، توصل إليها الشاعر : (ما انتفعت بأن أبالي).

- ٨ -

ورغم ما عرف عن المتنبي بأن مخترع للمعاني ومولدها إلا أنه
قلد بعض السابقين في بعض معانيه : خذ مثلاً قوله :

فقد أرد للمياه بغير هاد * يسوي عدي لها برق الغمام
 هو من قول عمر الأعور :
 سقي الله جيراننا جوارهم * كراماً إذا غدا وفوق كرام
 يعدون برق المزن في كل مهمة * فما رزقهم إلا بروق غمام
 وقول المتنبي :
 ولست بقائع من كل فضل * بأن أعزى إلي جدر همام
 هو من قول البحتري :
 وعد لهم عن آخر المجد غالب * فأفعالهم تحنوا قديم المناصب
 وقوله :
 تمتع من مهاد أو رقاد * ولا تأمل غري تحت الرجام
 فيه نظر إلي قول الآخر :
 تمتع بالرقاد علي شمس الـ * فنومك قد يطول علي اليمين

- ٩ -

وارتباط الأبيات بقليلها ووضوح وانعكاس شخصيته علي القصيدة
 ظاهر فيها من ملامح شعره الحكمة والألفاظ للجزلة والمعاني
 للمبتكرة والافتخار بالنفس عند الشدائد والإشادة بمواعيه وفنه
 للشعري والقصيدة تكشف عن حالته النفسية السينة التي لصابته

بمصر كما تكشف عن حقبة من حياته وطور من أطوار شعره
 قضاه في رحاب كافور وتعكس القصيدة استعلاء المتنبي علي من
 حوله حيث وضع نفسه فوق للشبهات كما تعكس شجاعته حيث
 استغنى عن المرشد والمونس في الصحراء وتعكس نشاطه حيث
 استغنى عن الوقاء لوجهه من حر الصحراء ، كما تعكس حميته
 وأريحيته حيث يسرع بمغادرة مكان البخلاء .. وقوله :
 ولست بقانع من كل فضل * بأن أعزى إلي جدد هُمام
 يعكس روحه المتسامية الأبية حيث اعتمد علي نفسه في كسبه
 الحمد لها والأبيات في معظمها تثبث عن فشله في تحقيق أمانيه ،
 وصعب علي النفس الكبيرة أن تفشل ؛ من أجل هذا هو يتعالى
 فيمزج مرير الشكوى بلذيق للفخر ، ولا يخفى ما في هذا من التأثير
 في نفوس السامعين !
 ولما كانت الحكمة تجري في عروق شاعرنا كان من حكمته -
 وهو أعزل من كل سلاح - أن يكون تعبيره ظاهره فيه الرحمة
 يخدع به كافور وحاشيته ، وباطنه من قبله العذاب يلهب به
 ظهورهم ، وهذا مادعاة إلي استخدام الرمز والكتابة إذ كان فيهما
 متنفس للصعداء ، وبهذا كانت هذه (الميمية) ، انعكاساً واضحاً
 لنفسية أبي الطيب المتنبي.

- ١٠ -

موسيقى الأبيات :

ويعني دائما بالموسيقى شينان : أولهما تلك الموسيقى الداخلية والتي
 تتمثل في تلازم وانسجام عبارات النظم كما تتمثل في البديعيات
 غير المتكلفة التي يوفق إليها الشاعر من مثل الطباق وحسن التقسيم
 والمقابلة وغير ذلك مما هو معروف عند علماء البلاغة ويقدر
 حكمة تلك البديعيات وعدم نشاز إحداها ويقدر تعاون وتماسك ،
 واللتام صوره للجزئية - التي تعين علي خلق صوره كلية تامة
 البناء بقدر ما تتحقق تلك الموسيقى الداخلية .

والشئ الثاني هو تلك الموسيقى (الخارجية) التي تمثلت هنا في (بحر الوافر) الذي تلازم مع أنات الممتني وانفعالاته كما صاحب أمواج قلبه الحزين الذي توارى خلف مدبح نفسه والفخر بها ، تلك ثورة نفسية كامنة إلا أنه لأصلى الوقار والثبات مع الحكمة تارة والشكوى والحسرة تارة أخرى وهذا المد والجزر للنفسي هو ما تمثلته تفعيلات البحر الوافر وهي (مفاعلتان مفاعلتان فعولن) فالتفعيلتان الأوليان يمثلان الثورة والثالثة تمثل الهدوء ، وكذلك وفق في اختيار القافية الميمية والتي سبقها مد مناسب لحالته المجردة التي يحتاج معها أن يُفرغ شحنات قلبه مع نهاية كل بيت يمتص تلك الشحنات المتأججة !

وأما موسيقى الأبيات (الدخلية) فقد كانت شائعة في النص متوافمة موقفة إلا في القليل النادر وكثيراً ما تخفى للشاعر الحزين هنا بموسيقياه الحزينة علي أنغام من الطباق والجناس وحسن التقسيم وإن عابه الإلحاح علي التبريض بكافور مما أصاب بعض ألفاظه الموسيقية أحياناً !

وما هدأت نفس الممتني حتي لشاع جواً موسيقياً وهو يختم انشاده حيث خرجت من وتر واحد هو طباق السلب ثم طباق الإيجاب !

أطوار شاعرية الممتني

مماسبق: يمكن أن نجمل أطوار شاعريته في أربعة أطوار هي :

الطور الأول:

يبدأ منذ نشأته بالكوفة منتقلاً بين الوراقين ثم الي بادية الشام حيث ضاقت عليه بغداد فمر بحلب ولطاكيه وللانقية فاحتفى به نفر من الأعيان والكبراء فمدحهم علي عادة للعرب وظفر منهم بالهدايا والعطاء ثم ارتحل عنهم ومضى إلي طرابلس الشام فلقى فيها "سحاق الأعرور" المعروف بابن (كيتلغ) وكان لمياً لا يقدر للشاعر قدره فأوعز إليه حساد للممتني بأن يلتصق منه مدحه فاعتذر الشاعر وهاج كيد المتناول فلم يجد أبو الطيب مناصاً من هجومه من ذلك قوله في وصف ابن كيتلغ :

ولذا أشار محدثاً فكانت **هـ** قرّ يقهقه أو عجوز تلطم .
وفي هذه الحقبة وشي به خساده إلي والي حمص فسجنه طويلاً
وأنهم بادعاء الذبوة فكتب المتنبي يعتذر إلي والي ويستعطفه
ويفهم منها أنه كان معذباً في سجنه ، جاء فيها قوله :
أمالك رقي ومن شأنه **هـ** هبات اللجين وعقّ للعبيد
دعوتك لما براني البلا وأوهن رجلى ثقل الحديد
وقد كان مشيهما في النعال فقد صار مشيهما في القيود
وكنت من الناس في محفل **هـ** فما أنا في محفل من قروود
فهو يطلب الرافة ويعتذر بصغر سنه وبالع في ذلك فقال :
تعجل في وجوب الحدود **هـ** وحدي قبل وجوب السجود
وقيل عدوت على العالـمـين بين ولادى وبين القعود
وانتهى هذا الطور المخجل بأن قبل والي عذره واستتابه وأطلق
سراحه فخرج من السجن بعد لصق به لقب المتنبي مع كراهته لهذا
اللقب وشدة جحوده وإنكاره لما نسب إليه

الطور الثاني :

وقد كان في كنف سيف الدولة (٣٣٧هـ - ٣٤٦هـ) وكان سيف
الدولة بن حمدان عربياً شيعياً ومحارباً شجاعاً فترنم المتنبي
انتصارات الأمير علي البيزنطيين وعزف على مسامح الدنيا لأجل
ما صاغه المتنبي من الحان شعرية في تصوير المعارك والحروب
حيث وجد ضالته في الأمير الحمداني منذ وقف عليه فأكرم وفادته
وأحله للمحل الرفيع يقول الدكتور طه حسين عن شاعرية المتنبي
في هذه الحقبة :^(١)

لقد وثب بشعره ، حين اتصل بسيف الدولة وثبته التي رفعت له
الأوج وضمنت له مكانة بين الفحول من شعراء العرب ، فقد امتلك
ناصية الفن حقاً وجعل يتصرف بالفاظله ومعاذيه كما كان يتصرف
بها الفحول وأثبت شخصية قوية واضحة متميزة عن غيرها

(١) محمد كمال حلمي ص / ٣٨-٣٩ و (مع المتنبي) د / طه حسين ص ١٧٨ .

وأصبح مرآة واضحة لنفسه . نستطيع أن نقرأ القصيدة من شعر
المتنبى فنقول إنها قصيدته وهو لم يتأثر بهذا الشاعر أو ذلك ، على
حين كنا قبل هذا الطور من أطواره نقرأ القصيدة من شعره فنحس
وراءها المثل الذي احتذاه والنموذج الذي اتبعه ، فمرة نحس
البحرئى وحيناً نلمح الحطينة وحيناً نلمح الأعشى وربما خُيِّل إلينا
أننا نرى زهيراً * .

نال المتنبى الخطوة عند سيف الدولة ولكن لم يلبث أن تقشع ظلها
فقد أوجز الشعراء صدر الأمير ولاسيما بعد أن عاد المتنبى إلى
غروره واستعلائه وتمسكه بالأنازل في منحه عن مستوى الملوك !
* وقد أكثر أبو الطيب من ذكر ذلك المركز العالي الذي ناله لدى
الأمير كما أكثر من ذكر حساده والاستجداء بالأمير في رد كيدهم
عنه لأنه هو الذي جلب عليه حقد هؤلاء الحساد ، يقول (١)

أزل حسد الحساد عني بكيبتهم * فأنت الذي صيرتهم لي حسداً
وما كمد الحساد شيئاً قصدته * ولكنه من يزحم البحر يفرق
ويبدو أن أبا فراس الحمداني كان في مقامة الشعراء الذين كانوا
سبب للوحشة بين المتنبى وسيف الدولة ، وكثيراً ما اتهمه بالسرقة
من الشعراء فيما يمدح به الأمير إلى أن ضجر الأمير بكثرة الأخذ
والرد فضرب المتنبى بدواة كانت في يده فقال للمتنبى علي الفور :
إن كان سرکم ما قال حاسدنا * فما لجرح إذا أرضاکم ألم
ورغم ذلك لم يرحمه أبو فراس فقال : وهذا لأخذته من قول بشار :
إذا رضيتم بأن نجفي وسرکم * قول الوشاة فلا شكوى ولاضجر
فلم يلتفت الأمير إلى قول أبي فراس وأعجبه بيت المتنبى ورضي
عنه في الحال وقيل رأسه وأجازره بألف دينار ثم أوقفها بألف أخرى
فقال للمتنبى

جاءت دفانيرك مختومة * عاجلة ألفاً علي ألف
تشبهها فعلك في غيلق * قلبته صفاً علي صف

(١) محمد كمال حلمي ص ٤٨

الطور الثالث:

وأمام هذه النيران والأحقاد التي واجهها المنتبى اضطر إلى الفرار خفية إلى دمشق ثم جال في بعض تواحي الشام وفلسطين فكتب كافور إلى عامله بالرملة لبيعته بالمنتبى إليه فجاء مصر فأكرمه كافور ، فطلب منه المنتبى أن يوليه ولاية في مصر فوعده كافور ثم ما طله لما رأى من تعاليه ، وما عرف عنه من أمر النبوة ، وخشي أن هو ولاء أن يطمع في ملك مصر من بعده فقال لمن عاتبه في أمره " يا قوم ، من ادعى النبوة بعد محمد ، أما يدعي المملكة بعد كافور ؟ ثم كانت العلاقة بينهما على غرار ما ذكرناه^(١)

الطور الرابع:

هذا هو الدور القصير كان أشبه بالاستراحة التي قضاه بعد عناء فلم يتصل بأحد من الأمراء ولعله لم يوفق إلي من يوافق مزاجه أو يُنسيه ما كان من أمر كافور معه وازدادت نفس شاعرنا كآبة فعاش في معزل عن الناس ولم يقصد أحداً من أولي الشأن في بغداد قاعدة الخلافة ومقر آل بويه الذين انتهى إليهم ملك الدولة الإسلامية حينئذ ، ثم رحل إلى بلاد فارس (٣٥٣هـ) فاتصل بالبن العميد وكان أدبياً ناقداً وركن الدولة ، فتبادلا الأشعار والمدائح ، ثم قصد المنتبى عضد الدولة وقال فيه :

وقد رأيت الملوك قاطبة * وسرت حتى رأيت مولاها
وهو ملك من أبناء العجم يحب العربية وينظم الشعر وهو أول من
خطب بالملك في الإسلام وكان من جملة ألقابه تاج الملة ولما
حضرته الوفاة كان لسانه يردد قوله تعالى " ما أغنى عني ماليه
هالك عني سلطانيه " ^(٢)

مقتل المنتبى: وردت أخبار كثيرة عن ظروف مقتله ، ولعل أشهرها أنه استأذن عضد الدولة ابن بويه بعد أن منحه وعباد من

(١) راجع هذا البحث ص ٣١ وما بعدها .

(٢) راجع محمد كمال حلمي بك ص ٦٧

عنده بالأموال والنفائس ولما قرب من بغداد خرج عليه جماعة من البدو فقتلوه عند دير العاقول وقتلوا ابنه مُصَنِّداً وعلامة مفلجاً ونهبوا ما معه وكان مقتله في أواخر رمضان (سنة ٣٥٤ هـ)

كلمة أخيرة:

يظهر من مجموع أحوال شاعرنا أنه لم يكن يعرف المداراة - فاكْتَسَبَ له أعداء وحساداً في كل مكان حلّ فيه ؛ لذلك أكثر من ذكر الحساد في شعره فاستخفّ بها تارة وحمل عليهم مراراً حينما كانت تشتد عليه وطأتهم ، فكان له خصم في حاشية (بدر بن عمار) وخصوم في حاشية سيف الدولة منهم أبو فراس وابن خالويه النحوي وقد اكتسب في مصر عدواة "ابن حنّزلية" وزير كافور وانتهى به الأمر إلى معاداة كافور نفسه ولما فرّ من مصر وقصد بغداد أشار علي نفسه سخط كبيرائها وقامت عليه قيامة الشعراء والأدباء الذين أغراهم به الوزير المهلبى ومن شايعه ، ثم انضم إلى أعدائه (الصاحب بن عباد) الذي أساء إلى سمعة الممتنبي وأخيراً كان موته ثمرة من ثمار العدواة التي شبّ نارها بهجائه لضية بن يزيد الغنّبي . كل هذه الإهانات إنما لحقت بابي الطيّب لأنه لم يستطع أن يصانع الناس أو أن يكسب ودّهم ، ولو أنه جاملهم وعضّ الطرف عن شيء من أذاهم في أول الأمر ولتبع سياسة المداراة لكفّ عن نفسه عدوات كثيرة ، ولكنه أغرى الناس بنفسه بسوء تدبيره . لو كان للممتنبي شاعراً عادياً لمناقشه الحساب أحد ولكنه الحكيم الذي يدعوا للخلق الكريم وفضلاً عما ذكر ، فقد كان صاحب مطامع كبيرة في مصر والشام وكان الأولي به أن يتنازل عن هذا لأنه أعرف بنفسه من غيره ^(١)

(١) راجع محمد كمال حلمي بك / ١١٢ - ١١٥

أبو فراس الحمداني

في ظل ضعف الدولة العباسية وجد القادة الحمدانيون الفرصة مواتية للاستقلال فوقفوا إلى تأسيس إمارات لهم إلا أن الصراعات بينهم أدت إلى مقتل "سعيد بن حمدان" (والد أبي فراس) الذي كان أحد أمراء الموصل كما كان مقدما استطاع أن يصد عن إمارته كثيرا من هجمات اللاتين وأن يغزو الروم ، ولما تمرد "ناصر الدولة الحمداني" شقيق سيف الدولة علي الخلافة العباسية واستقل بالموصل استدعي الخليفة الراضي بالله سعيد بن حمدان عم ناصر للدولة وولاه الموصل علي أن يخرج منها ابن أخيه ، فما كان من ناصر الدولة إلا أن قتل عمه والد أبي فراس ، وبعد مقتله استقل بحلب (علي بن أبي الهيجاء) الذي لقب بسيف الدولة نظرا لإقدامه وشجاعته وقد احتضن إليه ابن عمه (الحارث بن سعيد) شاعرنا إبن فُأبو فراس هو : الأمير الحارث سعيد بن حمدان بن عم سيف الدولة وناصر الدولة ولد بالموصل سنة ٣٢٢ هـ في بيت يجمع بين الحكم والأدب أو السيف والقلم فقد كان رأس أسرته (عبد الله بن حمدان) يلي الموصل للخليفة المتوكل وابن عم سيف الدولة حكم حلب وشمال الشام بعد عام ٣٢٣ هـ

أبو فراس الأديب

لما اغتيل والده بالموصل وهو في الثالثة من عمره غمرته أمه بحنوها وهيات له مربين وشعراء من أهل الشام كان للبحري منهم وعاش أبو فراس صباه في بلاط ابن عمه سيف الدولة الذي كان زوجا لأخته ولا شك أن أبا فراس قد انتفع بهذه البيئة حيث كان لها أثر في ثقل شاعريته واستوانها علي سوقها حيث كان العلماء والشعراء يقصدون بلاط سيف الدولة الذي كان يشجعهم ويغدق عليهم الجوائز وهو بهذا يحرك فيهم المشاعر والحاسة الفنية وقد أفاد أبو فراس من هذا كله ؛ ولهذا يخاطب سيف الدولة فيقول :

من بحر شعرك أعترف • وبفضل علمك أعترف

لقد برع أبو فراس في فنون شعرية عرف بها بين أقرانه وأهمها
الفخر والوصف والاستعطاف والعتاب ، ولقد كان لحياته الحازمة
انعكاس على شعره فهو لم ينظم في شراب أو خلاعة أو مجون ؛

ولهذا يقول فيه الصاحب بن عباد : بدئ الشعر بملك وختم بملك
يعني بالأول امرأ القيس وبالثاني أبا فراس ، لقد كان بحق رب
السيف والقلم ، كما كان شاعر الأمراء وأمير الشعراء في عصره
ولا سيما قبل أن ينضم للمنتبي إلي بلاط سيف الدولة .

ولقد كان المنتبي يجله ويشهد له بالتقدير ويتحامي جانيه فلا ينسري
لمباراته ولا يجترئ على مجاراته وهو وإن لم يمنحه ومدح غيره
من الحمدانيين فلعل السبب أنه كان يخشى اتهامه بالتملق له والجبن
منه خاصة وأن أبا فراس كان علي رأس المناهضين للمنتبي فضلاً
عن عدم مداراته كما ذكر .

وأبو فراس يجمع إلي الحكمة العزة والإباء كاعظم ما يعرف به
فتي محارب وكان سيف الدولة يعجب جداً بمحاسن أبي فراس
ويميزه بالإكرام عن سائر قومه ويصطنعه لنفسه ويصطحبه في
غزواته بل ولأه ثغراً من أهم الثغور فجعله أميراً علي منيع فتولى
شئونها وشرع يدفع عنها غارات الروم وهجمات القبائل الشائرة
بأبن عمه

أبو فراس الأسير:

وإلي جانب شاعريته كان فارساً ، تعلم الرماية والفروسية علي يد
أربابها ومن ثم خاض في حداثته المعارك وهو القائل * غزونا مع
سيف الدولة وفتحنا حصن العيون في سنة ٣٣٩هـ وسني إذ ذلك
تسع عشرة سنة وهو يجمع إلي حداثه شبابه وطموحه تضج الكهول
وحكمتهم علي ما سيأتي في شعره

وحياة أبي فراس العسكرية تشهد له بالشجاعة والتفوق ، فقد حضر مع سيف الدولة معظم وقائعهم مع الروم وكان الأعداء يرتعدون منه وتتخلع قلوبهم لمراه .. ورغم انتصاراته التي سجلها في شعره لم يحالفه التوفيق لحياً فوق أسيراً في أيدي الروم وهو يدفعهم عن حلب التي أصموا فيها يد الدمار والتخريب حينذاك أصابه سهم من هؤلاء وبقي نصله في فخذه اضطر إلي أن يشق فخذه ليخلص من النصل وفي هذا يقول :

فلا تصفُ الحرب صدي فإلها طعامي مذبعت الصبأ وشرابي
وقد عرفت وقع المسامير مهجتي وشقق عن زرق النصول إهابي

وقد وقع الشاعر الحمداني أسيراً في يد الروم مرتين الأولى : وكانت في سنة ٣٤٨ هـ عندما عزم سيف الدولة على ضرب الروم في بلادهم وكان أبو فراس قائداً في الجيش فوقع أسيراً بعد أن نصب له الروم كميناً بمعاونة أحد الخونة في جيش سيف الدولة واستطاع أبو فراس للخلاص من أسرته . أما الثانية : فكانت في سنة ٣٥١ هـ عندما زحف الروم إلى حلب ، ودافع أبو فراس عن معقل أسرته دفاع المستميت فجرح في فخذه ونقله الروم أسيراً إلى القسطنطينية وقضى بها أربع سنوات أي أن سيف الدولة قد أبطأ كثيراً في مفاداة صغره وتخليصه من الروم ، وعاش أبو فراس في سجنه يعتصره الالم وسواء أكان إغفال الأمير عنه لشواغل استبدت به أو أنه لم يرد أن يخصه بالفداء دون الثلاثمائة الذين كانوا معه حتى يكون هناك فداء لشتى الأسرى من المسلمين ، أو أنه إهمال متعمد من الأمير لنميسة قد أفسدت ما بين الرجلين - حيث اتهم بالحرب لحساب الروم - على أي حال - فإن النصال قد تكسرت على أبي فراس ، واشتعلت رأسه شيباً وساعت حالته النفسية وتولت رسائله وفيها يعاتب ابن عمه مرة ويشكو همومه مرات وكثر نظمه للشعر في سجنه ، يعتب فيه على ابن عمه ، ويذكره

يفضله فكان من هذا كله عدد من القصائد التي امتازت بالرقّة والحنين ، والتي عرفت باسم (السروميات) وهكذا ظل السجين حتى تم الفداء بين سيف الدولة والروم وذلك في سنة ٣٥٥ هـ

وقد أطلق سراح أبي فراس وعاد إلى وطنه ولم تمض بضعة أشهر حتى قضى سيف الدولة ، وارتقى العرش من بعده ابنه أبو المعالي سعد الدولة ذلك الصبي الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره فطمع أبو فراس في حمص ولكن (أبا المعالي) اعترضه ووقعت بينهما حرب انتهت بمقتل أبي فراس سنة سبع وخمسين وثلاثمائة ولم يتجاوز السابعة والثلاثين من عمره وقد جمع شعره في ديوان

هكذا كانت نهايته من وراء طموحه وعلى يد ابن سيف الدولة وابن أخته الذي طويت على يديه صفحة غراء من صفحات الحمدانيين الذين قال فيهم الثعالبي : "أوجههم للصباحة ، وأسنتهم للفصاحة ، وأيديهم للسماحة ، وعقولهم للرجاحة".^(١)

والقصيدة التي اخترناها للدراسة هي واحدة من (السروميات) التي تعكس روح أبي فراس الأدبية ، كما تعكس شخصيته التي جمعت بين حداثة شبابه وطموحه ، ونضج الكهول وحكمته كأكظم ما يعرف به هذا وذلك والقصيدة التي معنا تزيد عندها على أربعين بيتاً ، وقد سنميت بمطلعها وهو (أراك عصي الدمع) وفيها يقول :^(٢)

- ١ -

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهى عليك ولا أمر^(٣)

(١) راجع مقدمة ديوان أبي فراس الحمداني شرح وتقديم عباس عبد الساتر ط/٢/ ١٩٨٦م دار الكتب العلمية بيروت وكتاب من عيون الأدب د/محمد كامل الفقي ط/١/ ١٩٧١م دار الطباعة المحمدية بالأزهر بالقاهرة ص/٦١

(٢) ديوان أبي فراس ص/٦٤ ومن عيون الأدب ص/٥٨ - ٦٠

(٣) أراك .. الخطاب لنفسه على طريقة التجريد .

نعم أنا مشتاق وعندي لوعة
إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى
وأنزلت دمعاً من خلانقه الكبير^(١)
تكد تضيء النّار بين جوانحي
إذا هي أنكتها الصباية والفكر^(٢)
معلتي بالوصل والموت دونه
إذا ميتاً ظمناً فلا نزل القطر^(٣)

- ٢ -

بدوت وأهلي حاضرون لأهلي
وحاربت قومي في هوائك وإلههم
وإن كان ما قال الوشاة ، ولم يكن
وقيت وفي بعض الوفاء مثله
وقور وريمان الصبا يستغزها
تسألني من أنت ؟ وهي عليمة
فقلت كما شئت وشاء لها الهوى
فقلت لها : لو شئت لم تتعنتي
وما كان لأحزان لولاك مسالك
فايقنت أن لا عز بعدي لعاشق
أري أن داراً كنت من أهلها قفر^(٤)
وإياي لولا خبك الماء والخمر^(٥)
فقد يهدم الإيمان ماشيد الكفر^(٦)
لأنسة في الحي شيمتها الغدر
فتأرن أحياناً كما أرن المهر^(٧)
وهل بفتي مثلي علي حاله نكر ؟
فتلك قالت أيهم ؟ فهم كثر !
ولم تسألني عني وعندك بي خبر^(٨)
إلي القلب لكن الهوى لليلي جسر
وأن يدي مما عقلت به صفر

(١) أضواني: شجائي وأضعفني . خلانقه : صفاته . الكبير : الأنفة .

(٢) الجوانح: أوتال الضلوع تحت الترائب أنكتها أشعلتها . الصباية: الشوق

(٣) معلتي بالوصل: مطمعتي أي تبسط لي الأمل في الوصال . القطر: المطر

(٤) بدوت أقمت في البادية وأهلي حاضرون أي من أهل الحضر .

(٥) وإيهم وإياي... أي ممتزجون امتزاج الماء بالخمر

(٦) الوشاة : جمع وائش وهو من يزووا كلاماً يسعى به بين الناس .

(٧) وقور : أي هي وقور وريمان الصبا : مقبله (شبابه) يستغزها : يستغفها

(٨) تأرن : تمرح وتتشط يقال : مهر أرن أي مرح ونيط .

(٩) لم تتعنتي : أي تتعنتين وتعلمني : ماله عن شين أراد التلبس عليه والمشقة

فَقَالَتْ : لَقَدْ أَرَى بِكَ الدَّهْرَ بَعْدَنَا فَعَلْتُ : مَعَاذَ اللَّهِ بَلْ أَنْتَ لَا الدَّهْرَ^(١)

- ٣ -

وَقَلْبِي أَمْرِي لَا أَرَى لِي رَاحَةً إِذَا الْبَيْنَ أُنْسَانِي أَلْحَ بِي الْهَجْرُ^(٢)
فَعَدْتُ إِلَيَّ حُكْمَ الزَّمَانِ وَحُكْمَهَا لَهَا الذَّنْبُ لَا تَجْزِي بِهِ وَلِي الْعَذْرُ
كَأَنِّي أَنَادِي دُونَ مِثْلَاءَ ظَبْيِي عَلَى شَرْفٍ ظُمِيَاءَ جَلَّلَهَا الذَّعْرُ^(٣)
تَجَقُّلٌ حِينًا ، ثُمَّ تَكْنُوكَانِهِمَا ثَنَادِي طَلَا بِالْجَزْيِ أَعْجَزُهُ الْحَصْرُ^(٤)

- ٤ -

ثُمَّ قَالَ يَفْتَحِرُ :

وَأَنِّي لَنَزَالٌ بِكُلِّ مَخْوَفَةٍ كَثِيرٌ إِلَيَّ نُزَالُهَا النَّظَرُ لِلشَّرَرِ^(٥)
وَأَنِّي لَجَرَّارٌ لِكُلِّ كَتِيبَةٍ مُعْوَدَةٌ أَنْ لَا يَخْلُ بِهَا النُّصْرُ^(٦)
فَأَصْدِي إِلَيَّ أَنْ تَتْرُوِي الْبَيْضُ وَالْقَتَا وَاسْغَبْ حَتَّى يَشْبَحَ الذَّنْبُ وَالنُّسْرُ^(٧)
وَلَا أَصْبِحُ الْحَيَّ الْخُلُوفَ يَغْفَارُهُ أَوْ الْجَيْشُ مَا لَمْ تَأْتِهِ قَبْلِي النُّذْرُ^(٨)

(١) أَرَى بِكَ الدَّهْرَ : غَيَّرَ حَالَكَ ، وَلَسَاءَ إِلَيْكَ .

(٢) الْبَيْنَ : الْفَرَاقَ وَابْعَدَ مِنْ أَسْمَاءِ الْأَضْدَادِ .

(٣) الْمِثْلَاءُ : الْأَرْضُ السَّهْلَةُ وَمَاتَسَعَ مِنْ فَوْهَةِ الْوَادِي وَالشَّرَفُ : الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ ، وَظُمِيَاءُ : رَقِيقَةُ الْجَفْسُونِ . وَجَلَّلَهَا الذَّعْرُ : شَمَلَهَا الْخَوْفُ .

(٤) تَجَقُّلٌ : تَسْرَعُ . وَالطَّلَا : وَلَدَ الْغَزَالَةَ سَاعَةَ يُولَدُ . وَالْحَصْرُ : الْعَمَى

(٥) الْمَخْوَفَةُ : أَرْضٌ مَخِيفَةٌ . وَالشَّرَرُ : نَظَرٌ فِيهِ إِعْرَاضٌ أَوْ غَضَبٌ وَامْتِعَاضٌ

(٦) جَرَّارٌ : أَيُّ قَائِدٍ . وَالكِتَابَةُ الْعَسْكَرُ الْمَجْتَمِعُ أَوْ الْجَمَاعَةُ مِنَ الْخَيْلِ إِذَا أَغَارَتْ مِنَ الْمَانَةِ إِلَى الْأَلْفِ أَلَا يَخْلُ بِهَا : أَلَا يَتْرُكُهَا .

(٧) أَصْدَى : أَظْلَمَ الْبَيْضُ : السِّيُوفُ . الْقَتَا : جَمْعُ قَتَاةٍ وَهِيَ الرَّمْحُ . وَلَسْغَبَ : أَلْجَوْعَ

(٨) الْحَيَّ الْخُلُوفَ : أَيُّ الْغَائِبِ رَجَالَهُ ، أَيُّ أَنَّهُ لَا يَهْجُمُ أَعْدَاءَهُ مَا لَمْ يَنْذِرْهُمْ

ويارب دارلم تخلفي منيعــــــــــــــــة
 وساحبة الأذيال نحوي لقيتها
 وهبت لها ما حازه الجيش كــــــــــــــــة
 ولا راح يطغيني بأثوابه اللغــــــــــــــــني
 أسرت وما صحبي بفزل لدى الوغــــــــــــــــي
 ولكن إذا حمّ القضاء علي امــــــــــــــــري
 وقال أصبحابي للفرار أو للــــــــــــــــردّي
 ولكنني أمضي لما يعيــــــــــــــــبني
 ولا خير في دفع الردى بمذلــــــــــــــــة
 يمتنون أن خلوا ثيابي ، وإثــــــــــــــــمنا
 وقائم سيف فيهم اتدق نصلــــــــــــــــه
 طلعت عليها بالردى أنا والفجر^(١)
 فلم يلحقها جهم اللقاء ولا وعــــــــــــــــر^(٢)
 ورحلت ولم يكشف لأثوابها ســــــــــــــــتر
 ولا بات يثيني عن الكرم الفقــــــــــــــــر^(٣)
 ولا فرسي مهر ولا رثه عــــــــــــــــمر^(٤)
 فليس له برّ يقيه ولا بحر^(٥)
 فقلت هما أمران أحلاهما مر^(٦)
 وحسبك من أمرين بخيرهما الأسر^(٧)
 كما رثها يوماً بسوائه عــــــــــــــــمر^(٨)
 علي ثياب من دمانهم حمــــــــــــــــر^(٩)
 وأعقاب رمح فيهم خطيم الصــــــــــــــــدر

(١) دار منيع : حصينة . والردى : الهلاك .

(٢) ساحبة الأذيال : كناية عن الفتاة الجميلة المتبخثرة . جهم اللقاء : غليظ جثن ووعر اللقاء : جافي اللقاء .

(٣) للمزل جمع أعزل : وهو من لا يملك سلاحاً معه والمهر : ولد الفرس أول ما ينتج منه . واللغمر : من لم يجرب الأمور .

(٤) حمّ القضاء أي قدر أو شاء القدر .

(٥) السواة : العورة الفاحشة وعمره هو ابن العاص .

(٦) من عليه : أي أنعم عليه والاسم المنة . ومن عليه وامتن وثمن : قرّعه بمنة ، وخلو ثيابي : تركوها .

سيذكرني قومي إذا جدّ جدهم وفي الليلة الظلماء يفقد البدر (١)
ولو سدّ غيري ما مسدت اكتفوا به وما كان يغلوا التبر لو نفق الصفر (٢)
ونحن أناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن يخطب الحناء لم يغلبها المهر
أعزّ بني الدنيا وأعلي ذوي العيلا وأكرم من فوق التراب ولا فخر

تحليل وتحليل

تقديم واستمالة

بدأ الشاعر قصيدته بداية قديمة تقليدية حيث بدأ بالغزل ، بيد أنه
أطال في مقدمته الغزلية حتى قاربت نصف القصيدة تقريبا وكان
المقدمة لم تكن مجرد تقليد بل كانت هدفا مقصودا ، وبهذا يمكن
القول : بأن موضوع القصيدة هو (النسيب والفخر) (٣)
والأبيات الخمسة الأولى حوار طريف بين الشاعر ونفسه أو بينه
وبين صاحبه الذي جرّده من نفسه ، فهذا الصاحب يعيب علي
الشاعر تجلده وصبره علي ما به من وجد وصبابة ، وكيف يقوي
علي سلطان حبه والحب يأمر وينهي ويغير ويبدل ، فيجيب الشاعر
بأنه يعاني من الشوق حقا وهو يعالج جراح حبه بيد أنه يكتف بذلك
لئلا يصير حبه مضغّة للأفواه من أجل هذا هو يطالع الناس بدمعه
الأبي ويقلب المتجلد فلا يشكو ولا يضعف إلا في ظلمات الليل
ولهيب الصبابة بين جوانحه وهو لا يفتأ يذكر محبوبته ويتمنّى

(١) اللجذ بالكسر : الاجتهاد..

(٢) يغلوا ضد يرخص ، ونفق الشيء راج ، التبر : الذهب غير مضروب

الصغير النحاس الأصفر..

(٣) راجع شرح ابن خالويه للقصيدة الرائية بالديوان جـ / ٢ .

لقاءها وهو بعيد عنها مميتة عليه ، ومادام هو لا يروي ظمأه إذا
فهو يدعو بالآل ينزل المطر الذي يروي ظمأ الناس حتى يتساووا به
وإن اختلف السبب ! وهو غريب الدار مادام بعيداً عن المحبوبة وإن
كانت هي تعيش معه بروحها ومشاعرها

حوار المحبين :

وهو حوار يشف عن وفاة وإخلاص فهو يقول لها لقد اختلفت حياتي
عن حياة قومي ، وقد انصرفيت عنهم وملئت إليك لأنني أرى كل
شيء حولي خراباً قفراً ما دمت بعيداً عنك ولقد حاربت قومي بنفسي
حيك الذي أمنت به ولولاه لالتصقت بقومي وامتزجت بهم لمتزاج
الماء بالخمر لقد تمكن حيك هذا من قلبي فخالط هواي ، وهذا الحب
القوي كفيل بأن يهدم ما يشيده الواشون .

ثم يحكي قصة حبه ووفائه للذين قوبلا منها بالغدر ، فهي تبدو في
وقار مصطنع بينما هي عابسة مستهترة يستخفها ريعان الصبا
فتمرح كما يمرح المهر وهي تتجاهله حين تسأله من أنت ؟ فيعجب
وهو الفارس المغوار والعلم المميز بيد أنه يجارها للقول فيجيبها في
تسامح وصدق : أنا قتيلك الهائم بحبك ولكنها تزيد في تجاهلها له
فتسأله . وأي العشاق أنت ؟ فهم كثيرون ، وهنا يضطر إلي أن
يفضح دلائها وأن يدفع عنه تجاهلها فيعاتبها ذاكراً لها أنها تعرفه
فليس لها أن تسأله ثم يذكر أنه لم يكن يعرف طريقاً للأحزان إلا أن
الحب أوصله للهوان (قالهوى لليلي جسر) وهو يعزم على عدم
العود إلي مثل هذا الحب الذي فشل فيه وخرج منه صفر اليدين فتد
عليه المحبوبة معذرة عما بدر منها معللة تجاهلها بأنها لم تكن
تعرفه وقد هزل جسمه وغيّر الدهر حاله ، فيرد عليها بأن الحب هو
السبب كله وليس الدهر كما تدعين .

عودة إلي النفس :

والأبيات من (١٧ - ٢٠) فيها يعود الشاعر إلي نفسه وكأنه
يراجعها بعدما فقد الراحة في حبه وحاول بالفراق نسيانها فلم يستطع

فعاد إلى الزمان ليلقي عليه التبعة ، ويسند إليه حكماً جائراً وهو :
أنها إذا أنذبت فلا تولد بنديها وله أن يعتذر هو على الذنب وهو
يصور العلاقة بينهما (علاقة المد والجزر العاطفي) بظبية
مضطربة على مكان عال وهي تند وتبتعد وهو ينادي عليها وكأنها
هي التي تنادي علي ولدها الصغير الذي لا حول له ولا قوة
الفخر والاعتزاز :

والآيات من (٢١ - ٢٩) هو موضوع القصيد حيث يعرض للفخر
والاعتزاز والحديث عن الحرب بعدما أثار الأسر عواطفه وشجونه
كما أثاره تباطؤ الأمير في خلاصه وهذا ما دعاه لأن يذكر المواقف
المشرقة التي خاضها وكانت مدعاة لفخره ؛ لذا هو يوازن بين حالين
متناقضتين : بين حاله اليوم وقد أصبح مكبلاً ومقيداً وحاله بالأمس
وهو يشن غاراته على العدو الذي أسره ؛ ولذا فهو حزين ملتاع يتألم
لفراق أمه وأبناء وطنه وقد أصبح لا يدري عنهم شيئاً وهو يرنو إلى
سيف الدولة لينجده بعد أن قاد له الجيش وخاض المعارك وكان
حليفه النصر ؛ من أجل هذا هو التفتي بهذه الذكريات لعلها تسري
عن نفسه وتعزيه في مصابه فيذكر أنه لا يشن غارة على أعدائه ما
لم ينذرهم مسبقاً وهو يفتخر بأدبه في الحرب ورب قوم ذوي هيبة
ومنة وتحصن طلع عليهم مع الفجر فكانت غارته هلكاً لهم لا
محالة !

وشاعرنا يأبى أن يضيف ضعيفاً ؛ ولذا هو يقبل شفاعاة المرأة لأنها
من بين الضعفاء فهو يلقاها في سماحة وتكريم ويصغي إليها في
إكبار واهتمام بأمرها وهو بكرمه يهب لقومها كل ما غنمه منهم
ويعيد لهم ما سلب منهم دون فضيحة لقومها أو كشف لسترها وهو
لا يغرر المال ولا يصده الفقر عن اكتساب المجد ومعالي الأمور
وهذا أيضاً من (افتخاره بأدبه في الحرب)

قصة الأسير

والأبيات من (٣٠-٣٦) تحكي قصة الأسير كما تكشف عن نبذه وشجاعته ، وفخر إتيها وقفة مع القدر الذي لوقعه في الأسر رغم ما معه من السلاح وكثرة الأصحاب ، ولم يحل دون أسره ، حنكة فرسه ولم يكن فرسه صغيراً غير مُعد للحرب بل كان مُعداً ومدرّباً وهو ما كان غافلاً غير مجرب بل هو الخبير المجرب ولكنه القدر الذي لا مفر منه والأمر النافذ الذي لا يُرد ، لقد نصحه بعض صحبه بالفرار - وهم قلة متبقية - وقد حاولوا حين حمي وطيس القتال أن يقتعوه بالفرار إلا أن نفسه أبى ذلك الفرار وكان جوابه للمحكم المأثور: (هما أمران أحلاهما مر) إذ أن الفرار لا يخلفه إلا الذل والعار ؛ ولهذا فهو ماضٍ في طريق الشرف ، وسيحمل اللواء وحسبه من الشرف البسالة لقد أقدم على مسلكين مريرين: إما الأسر وإما الهلاك ، وإن عاراً أي عاراً يذود الشجاع عن نفسه بما يجلب له العار وذلك كما فعل ' عمرو بن العاص ' عندما همّ الإمام علي كرم الله وجهه - بقتله فكشف له عن سوءته ، أعرض عنه لعلمه أن علياً لم ير سوءة قط ، ومن ثم قيل : كرم الله وجهه ويستطرد الشاعر في فخره وهو يقص ما وقع له في أسره فيذكر أن أعداءه (الروم) لم يجردوه بعد الأسر من ثيابه ؛ ولهذا فهم يمشون عليه بذلك زاعمين أنه تفضل منهم وكرم - يقول : وإني لأكتسى ثياباً حمراء من دماهم أي أن ثيابه حمراء لتلطخها بدمائهم

عود إلى الفخر بنفسه :

والأبيات من (٣٣-٤١) هي عود إلي الفخر بنفسه والإشادة بفضله علي قومه فيقول : إن قومي سينكرون بلاني ويعرفون فضلي حين يخنقهم الضيق وتطيق عليهم الشدائد وما أنا إلا كاليدّر لا يقدر الناس ضوؤه إلا في الليالي الظلماء حين لا يجدون سبيلاً للهداية غير ضوئه وأنا في قومي بطل لا غنى عني ولو وجد قومي ما يضمن

لهم الغلبة والنصر ما ذكروني ، شأني في ذلك شأن الذهب ما يرتفع
له قدر لو ناب النحاس مثابه !

إن الجبن لا يعرفنا ولا نعرفه لقد تعودت نفوسنا ألا نقنع إلا بغايات
الأمور فإما أن نكون شجعاناً لنا الصدر وإما أن يكون لنا القبر
قباطن الأرض حينئذ أولى بنا من ظاهرها إنا نرخص أرواحنا
ونجود بها ما دام في سبيل المجد والشرف وهكذا من يطلب يد
الحسنة لم يقلها للمهر فكل ما يبذل من أجلها زهيد !

إننا بهذه الخصال أكرم الناس عامة وقمة أهل المعالي وأرفعهم بل
إننا بغير مبالغة ولا ادعاء لشرف من علي الأرض

مناقشة الأفكار

- ١ -

عرض الشاعر أفكاره عرضاً شيقاً ومشرقاً لا يكتفبه لبس ولا
غموض حتى إن القارئ ليشعر بأنها من سلاستها سافرة ، فالمعاني
التي جلاها أبو فراس ترسم بطولته وتطلعه لمواقف النزال ،
واستطاع أبو فراس أن يلائم بين الغزل والغروسة والفخر بما يجب
أن يتحلى به القائد العربي وهذا ما يؤكد قوة عزمته وعدم استسلامه
فهر في غزله صاحب النعم العصي ، والصبر شيمته وليس للهوى
سلطان عليه فلا يذاع له سر ولا يبسط هواه إلا ليلاً وهو في فخره
صاحب شجاعة وبطولة فلا يتخلف عن حرب أو قيادة وهو يعطش
حتى ترتوي السيوف والرماح من دماء الأعداء وهو يجوع حتى
تشبع النخاب والنسور وهو يرسم للمحاربين (أدب الحرب) فيوضح
إيائه ورحمته بالمرأة وطهارته وعفته وغفوه عن قومها كما في
قصته مع المرأة حين تشفع فتشفع وقصته مع من يحاورهم ويردهم
إلى قضاء الله ثم ذكره لقصة عمرو بن العاص مع الإمام علي
وهكذا يتضح ما ذكرناه من وضوح الأفكار وسلاستها بيد أنها علي
درجة كبيرة من السطحية

الفاظ والأساليب:

وجاء أسلوب القصيدة لا يعكره قلق ولا يشوبه تقديم أو تأخير ولما كانت التجربة على نفس الشاعر قاسية جاءت عباراته مؤثرة والفاظه موحية تعبر عن واقع اليم ففي قوله :
إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى * وأذلت دمعاً من خلائقه للكبر
كناية عن المعاناة وهي توجي بالصبر والصمود وقوله :
معللتني بالوصل والموت دونه *
كناية أخرى توجي بالتردد الذي يعانيه في نفسه وهو وإن كان يريد بالعذاب موت العذاب والحرام إلا أن الموت الحقيقي يراه دائماً في معاركة فلا يعيا به ولنطالع مثلاً قوله :

ولكن إذا حتم القضاء علي امرئ *
وقوله : علي ثياب من دماهم حمر
وقوله : تهون علينا في المعالي نفوسنا
وهو في الفخر ينتقي العبارات المناسبة له ، كقوله :
(ولكن مثلي لا يذاع له سر) ، (وحاربت قومي) ، (وإني لجرار)
(حللت عليها بالردى) ، (سينكرني قومي)
وهكذا ينتقي اللفاظ المناسبة للنسب أو القروسية لتكون أوفى تعبيراً وأدق تصويراً وأكثر إيحاءً وتأملاً معي بماذا يوحى التصغير في قوله : أصبحاني للفرار أو الردى ، أهولقلة عدد الصحاب للباقيين حوله ؟ أو الهامسين له بالفرار ؟ أو هو تحقير لهم دون بقية الجيش ؟ وهو يكثر من الأساليب الإنشائية والخبرية وله في كل وجهته ، فهو يكثر من الاستفهام مثلاً ليناسب الحوار الذي بنى عليه قصيدته كقوله :

أما للهوى نهى عليك ولا أمر ؟ *
وهو هنا للتعجب ، وكذلك في قوله :
تسألنني من أنت وهي طيمة * وهل بفتى مثلي علي حاله نكر ؟

وأما الاستفهام في قوله :

قالت : أيهم فهم أكثر ؟ * فقد قصد به التحقير والتهكم به !
وفي القصيدة إجحاح على أسلوب الشرط ، وكذلك إجحاح على
أسلوب الاستدراك وكلاهما مناسب للحوار والنقاش كقوله :
(إذا الليل أضواني) ، (إذا هي أذكتها) ، (إذا مت ظمأنا) الخ
ومن الأساليب الإنشائية أيضاً النداء في قوله : (معللتني بالوصل)
والتمني : كقوله : (فلانزل للقطر) (ولا وفر الوفر)
وهو يذم المخاطب دائماً عن طريق الانتقال من صيغة المخاطب
إلى صيغة المتكلم كقوله : (أراك عصي الثمع) (إذا الليل
أضواني) ومن التكلم إلى الغيبة (وساحية الأنبال نحوي لقيتها)
وفي الأبيات إجحاح أيضاً على كلمة (لا) وكأنه يرمز بها إلى
رفضه لواقعها الأليم وعدم استسلامه وخضوعه ، كقوله :
(لا أرى لي راحة) (ولا أصبح الحي الخلوفا بغارة) (ولا
راح يطغيني) (ولا بات يثني) (ولا فرسي مهر) ... الخ
وقد شاعت الحكمة بين أرجاء القصيدة وهي مؤشر يدل على بعد
نظرة وكثرة تجاربه خذ مثلاً قوله :
(ولكن إذا حم للقضاء علي امرئ * فليس له بر يقيه ولا بحر)
وقوله : (وفي الليلة الظلماء يفتقد البندر)
(وما كان يغفلوا التبر لو نفق الصفر)
(ومن يخطب الحسنة لم يغفلها المهر)
والحكمة إنما يعتمد إليها الشاعر ويحرص عليها ، ليعرف بها
وليكون قوله ، أدعى إلى التأكيد والتصديق وهو هنا يضيف إلى
التأكيد بالحكمة ، التأكيد ببعض الأساليب الأخرى :
كلفظ (أن) في قوله : (وأن يدي مما علق به صفـر)
(وابن واللام) في قوله :
(وإني لنزال) ، (وإني لجـرار)
ولفظ (كل) في قوله : (وهبت لها ما حازه الجيش كله)
وأيو فراس وهو الشاعر المطبوع لم يتكلف بديعاً يزين به أسلوبه

أو يرهق به بيانه إلا ما جاء عفو الخاطر ، كالطبايق - وقد شاع بين الأبيات - وهو علي كثرتة أفاد أسلوبه توضيحاً وتأكيذاً . كقوله : (نهى وأمر) - (أنزلت والكبر) - (معلّتي بالوصل والموت دونه) - (عليمه ونكر) - (الذنب والعنن) - (تجفل وتدنو) - (فأصدي وترتوي) - (وأسغب ويشيع) - (بر وبحر) - (الفرار والردى) - (خلوا ثيابي وعلي ثياب) - (اللّبر والصفر) - (الصدر والقبر) - وقد شاعت الكنايات المحكمة كقوله : (ساحبة الأذيال كناية عن المرأة) وعن إزقة الدم باحمرار الثياب وجعله السيوف البيض والرماح ممّن ترتوي (علي الاستعارة) وهو يجعل الجد صاحب جد مبالغه ، علي سبيل المجاز العقلي .

كما يجعل نفسه ذهباً وغيّره نحاساً وهو يشبه طلب قومه له حين تنزل بهم الأحداث يتلمس الناس للقمر في الليلة الظلماء ، وهو لم ينصب الفعل (ترتوي) في قوله : فأصدي إلي أن ترتوي البيض والقنا وذلك لضرورة شعرية

- ٣ -

وعاطفة الشاعر : صادقة أي صدق ؛ فآبياته مرآة لخواطره الملتاعة وتسجيل لحبه ورجولته وأخلاقه ومبادئه ، فهو صادق في عواطفه للحارة وزوجه التي يعتصرها الألم وهو يعاني ألم الغربة ، بعدما أتر الأثر ؛ لهذا كله لم تكن أفكاره علي درجة من التعمق فليس الملتاع صالحاً لأن يغوص ويستقصي ويتأمل ، ذلك أقرب لذوي الفراغ منه إلي المحزونين ! لهذا نقول في اطمئنان : إن كل فكرة إنما نبتت من كبد ملتاع وقلب ولهان ، وما يشك مستمع للقصيدة في صدق العاطفة في كل بيت من أبياتها

- ٤ -

والأفكار وإن كانت تقليدية إلا أن الجديد فيها والطريف إنما هو ثوبه الذي أحسن نسجه ، وعرضه الذي أجاد سبكه وربما كان من الجديد أو الطريف هو مبالغته في شفاعته المرأة التي تشفع في

خصمه المحاربين فيهبش للقائها ويبش بقدومها ويهيبها ما جمعه الجيش دون أن ينال منها غرضاً أو يكشف لأتوابها سترها ، والغريب هنا أن يقاتل خصوم الإسلام والعروبة فينزل عن شتى المغانم لشفاعة امرأة من أعدائه وهذه سياسة لا نظن أنها متمشية مع سلوك الإسلام ولا مع سنة المحاربين ولا يخذعنا نفي طغيان المال له ، فليس ما جمعه الجيش للقائد وحده !
ومما يؤكد تقليد أبي فراس لغيره ما ذكره الدكتور زكي مبارك من أن قول أبي فراس :
بدوت وأهلي حاضرون لأتني أرى أن داراً لست من أهلها قفر مأخوذ من قول جميل :^(١)
أبيت مع الهلاك ضيفاً لأهلها وأهلي قريب موسعون ذوو فضل وإن قول أبي فراس :
وحاربت قومي في هواك وإنهم ولياي لو لا حيك الماء والخمر مأخوذ من قول جميل :^(٢)
كان لم نحارب يا بئث لو أنها تكشف غمها وأنت صديق

- ٥ -

وبريق القصيدة وغرضها يشعر لأول وهلة: أن الأفكار ذاتية ، إلا أن الصفات التي فاخر أبو فراس بها هي صفات القائد العربي المسلم الذي يجاهد قوماً كالروم وهم أعداء المسلمين والعرب وهم الذين أسروه وغمرتهم الأحزان عندهم ، فالفخر هنا (في الحقيقة) إنما هو تنويه بالقائد العربي المسلم وليس قاصراً في ذلك على شخصه حتى موقفه المبالغ فيه مع المرأة (ساحية الأنثى) تنويه بسماحة الإسلام والخلق العربي الأصيل .

(١) الهلاك : المعوزين الذين ينتظرون الحسنة من الناس [شرح ديوان جميل بئث ص ٦٧ لمهدي محمد ناصر الدين ط/١ دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٩٨٧] .
(٢) شرح ديوان جميل ص ٥٧

والقصيدة تعج بمبادئ كريمة ، فهو لا يخشى الحرب ، ولا يهاب الموت ولا يخوضها بغير سلاح ، ولا يلجأ بحال إلى دفع الردي بمثلة وهو أولا وأخيرا يؤمن بقضاء الله وقدره فأفكار القصيدة - إذن - إنسانية عامة ألبسها صاحبها ثوب الذاتية

- ٦ -

وارتباط القصيدة بأبي فراس : أغنى ما تكون عن البيان ، فصورته فيها تبهر العيون بل إن فيها أيضا صورة من معه من المجاهدين ! لقد فجر الأسر تجاريبه وأشعل وجدانه فجاءت أبياته انعكاسا صادقا لمجده وكبريائه ، كما جاءت أبياته : حبا وحنينا ودمعا وأنينا

والشاعر في فخره يلتزم بأدب النفس وأدب الحرب فلا تطغيه أموال الغنائم أو نشوة الانتصار عن العفة والحفاظ على العرض وهكذا تنعكس على الأبيات عواطفه الحارة ونفسيته الحزينة ، كما تنعكس أخلاقه ومبادئه الإنسانية العامة .

بيد أن خواطره قد ترابطت في الجزء الأول وهو التوسيع ، ثم بدت غير مرتبة في الجزء الآخر وهو الفخر .

- ٧ -

موسيقى الأبيات :

وفي الأبيات خفة ورقة وانتلاف نغم ! فالقارئ يحس بين الأبيات حسن إيقاع وبعد عن القلق ، ولعل مرجع ذلك إلى ما وفق إليه الشاعر من طباق غير متكلف وكلمات قابل بينها فأصغت على التلاحم الفني كما في قوله :

(وهبت) (ورحت) (ولا راح يطغيني) (ولايات يثني) الخ وكذلك ما وفق إليه من اختيار بحر الطويل (فعولن مقاعيلن) وقد طال ليله وكثر حزنه ، كما وفق في اختيار تلك (القافية الرائية) المناسبة للفخر وذلك لما فيها من امتداد الصوت وامتلاء النغم بنبراتها القوية .

مع أبي الحسن : الشريف الرضي

تعريف بالشاعر :

هو أبو الحسن أحمد بن الحسين ويقال له : الموسوي لأنه من دوحة تنسب إلي موسى الكاظم بن جعفر الصادق وينتهي أصله إلي الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب ويلقب بالشريف الرضي ، وكنيته أبو الحسن ، وقد وجدت في مطلع رسالة شعرية إليه من الصابي يقول فيها :

أبا حسن لي في الرجال فراسة * تعودت منها أن تقول فتصدقا
ولد ببغداد سنة ٣٥٩ هـ وكان أبوه نقيباً للأشراف الطالبين ، وقد ربي ابنه هذا ونشأه علي الدين والعلم حيث دفع به إلي المتصلعين في اللغة والأدب من أمثال ابن جني والسيرافي ، وقد ظهرت موهبته في الشعر وقد جاوز العاشرة بقليل وبجانب شاعريته كان عالماً بارعاً له مؤلفات علمية كثيرة منها كتابه في (معاني القرآن) ، (ومجازات القرآن) .
قال الثعالبي عن شعره : "إنه يجمع إلي السلاسة متانة وإلي السهولة رصانة ويشتمل علي معان يقرب جناها ويبعد مداها .."
ويقول الثعالبي أيضاً : "إنه ليس في شعراء عصره من هو أحسن منه تصرفاً في المراثي " ؛ لهذا كله لم يكن متكللاً في مدائحه ولا مفرطاً ، كما كان عفيفاً في غزله تكثر في دواوينه قصائد الرثاء مما يدل علي شعور فياض بالوفاء وهو متأثر في شعره بالسابقين خاصة المتيقبي وأبي فراس .
وقد أجمع الأكثرون علي أنه لشعر قريش لأن شعراء قريش كان فيهم من يجيد القول ولكنه قليل الشعر ، أما الشريف الرضي فمجيد أكثر ، وليس غيره كذلك ، لقد تغزل فعف ، ومدح فلم يسف وهجا دفاعاً عن عرض أو انتصافاً لحق فلا فحش ولا

بذاعة ، وقد افتخر لكن فخره تحدث بنعمة الله عليه ، وتعلق
بالنسب الطاهر^(١)

في الغزل المعنوي الشريف الرضي :

تمهيد :

القصيدة التي معنا هي واحدة من شعر الشريف الرضي في فن
الغزل وهي قصيدة مستقلة لهذا العرض ، وموضوعها تصوير
لذكريات ربطت بين الشاعر وفئة ملكة قلبه وملأت حياته
وأحس معها بالأنس ولطالما بأدائها الهوي وكان بينهما ذكريات
الطهر والعفاف قرب منازل الحي وهذه القصيدة تحكي أنسه بليلة
من تلك الليالي التي يناجي فيها الأحياء فيقول :^(٢)
يا ليلة السجح ألا عشت ثائيسه سقى زمانك هطل من الدائم^(٣)
ماض من العيش لو يفتدي بذلت له كرائم المال من خيل ومن ناعم^(٤)
لم أقضي منك ليانات ظفرت بها فهل لي اليوم إلا زفرة السدم^(٥)
رثوا على ليالي التي سلفت لم أستهن ولا بالعهد من قدم^(٦)

(١) راجع من عيون الأدب د محمد كامل الفقي ص ٧٥ وما بعدها ..

(٢) راجع شرح القصيدة بالمرجع السابق .

(٣) السجح : مكان معروف أسفل الجبل . ألا : حرف استفهام يفيد الطلب أي

هلا عشت . هطل : صيغة مبالغة من هطل المطر أي تتابع والثيم جمع

دبمة بالكسر وهي مطر يدوم في سكون بلا رعد ويرق

(٤) يفتدي ويفتدي ويفادي : أي يعطي شيئاً بدله لينقذه كرائم المال أعز

وأطيبه . النعم : قد تسكن عينه ، الإبل والشاة أو هو خاص بالإبل يذكر

ويؤنث ، وقال الغراء هو مذكر ، وجمع النعم أنعام وجمع الجمع : أناعم

(٥) لم أقض : لم أبلغ وأتم ، والليانات : جمع ليانة بضم اللام ، وهي الحاجة

من غير فاقة بل من همة . والزفرة اسم من زفر يزفر زفيراً إذا أخرج

نفسه بعد مدة إياه والجمع زفرات بفتح العين لأنه اسم لامتعت وقد تسكن

لضرورة الشعر .

(٦) سلف يسلف بالضم سلفاً بفتح السين أي مضى ، ومن معاني العهد الموثق

واللزمة والحفاظ . والقيد بكسر القاف مصدر قدم الشيء بالضم فو قدم

وتقدم مثله .

أقول للأنم المهدي ملامتـه
وظبية من طباء الإنس عاطلة
وأمت الرّيح كالغوري تجاذبنا
يشي بنا الطيب أحياناً ، ولونة
وبات بارق ذلك الشجر يوضح لي
وبيتنا عفر بايعتنا بيدي
وأكتم الصبح عنها وهي غافلة
فقلت أنقض برداً ما تعلّقـه
والمستقي وقد جدّ الوداغ بنا
ذق الهوى وإن أسطعت الملام لم
تستوف العن بين الخمص الهضم^(١)
علي الكتيب فضول الرّيط والّثم^(٢)
يضيئنا البرق مجتازاً علي إضم^(٣)
مواقع اللثم في داج من الظلم^(٤)
علي الوفاء بها والرّعي للضم^(٥)
حتى تكلم صغفور علي علم^(٦)
غير العفاف وراء الغيب والكرم^(٧)
كفّا تشير بقضبان من العنم^(٨)

(١) عطلت المرأة عطلاً وعطولا وتعطّلت إذا لم يكن عليها حلي فهي عاطلة
والخمص ضمور البطن . والهضم بفتحين لطف الخصر
(٢) للكتيب : التل من الرمل والجمع أكثيه وكثبان : الفضول الزوائد
والرّيط والرياط جمع ربطة ، وهي كل ملاءة ذات لفقين كأنها قطعة واحدة
أو الثوب اللين الرقيق ، ومثل الربطة الرائطة واللم جمع لمة بالكسر وهي
الشعر الذي يجاوز شحمة الأذن .
(٣) يشي بنا يتم علينا أونة : جمع أوان كازمنة جمع زمان وهو الحين يقال :
فلان يصنع كذا أونة وأبنة إذا كان يصنعه مراراً أو يدعه مراراً والمجتاز
: السالك أو مجتاز الطريق وإضم : عنب : الوادي الذي به المدينة المنورة .
(٤) البارق : اللامع . والشجر : الفم أو الأسنان أو مقدمها . يوضح بيين
ويظهر . والدلجي : المظلم . والظلم : جمع ظلمة ضدّ النور وهي تجمع
أيضاً علي ظلمات بضم اللام أوفتحها أو سكونها .
(٥) لعفر جمع أفر وعفراء وهما الطيبي والطبية تعلو بياضها حمرة وإنما
سكنت الفاء لضرورة النظم . وبايعتها : عاهدتها والتد من معانيها القوة .
والعي للضم : الحفظ للمهود .
(٦) العلم : الجبيل .

(٧) نفّض الثوب والشجر من باب نصر : حركه لينتفض ونفضه بالتشديد
للمبالغة . والبرد : بالضم ثوب مخطط والجمع أبراد وبرود . والغيب : كل
ما غاب عنك .
(٨) الجيد بالكسر : الاجتهاد في الأمر والمضارع بكسر العين وضمها .
والقضبان بضم القاف وكسر ها جمع قضيب وهو الفصن والعنم بفتحين
شجر لين الأغصان يشبه به بنان الحسان . وبنان معتم أي مخضوب .

ثم انتنينا وقد رايت ظواهرنا وفي بواطننا بُعداً من التهم (١)
يا حيداً لمةً بالرمل ثانيمةً ووقفةً ببيوت الحي من أُنم (٢)
وحيداً نهلةً من فيك بـاردة يُعدي علي حرّ قلبي بردها (٣)
دين عليك فإن تقضيه أحى به وإن أبيت تقاضينا إلي حكم (٤)
عجبت من باخل عني بريقته وقد بذلت له دون الأنام دمي (٥)
ما ساعفتني اللالي بعد بينهم إلا بكيت ليالينا بذي سلم (٦)
ولا استجدفواذي في الزمان هوي إلا ذكرت هوي أيامنا القدم (٧)
لا تطلبين لي الأبدال بعدهم فإن قلبي لا يرضى بغيرهم (٨)

تحليل وتعليق

(١) الأفكار العامة :

يمكن تقسيم ما اقتطفناه من أبيات الشريف الرضي إلي ما يأتي
(١-٥) يتذكر الشاعر ليلة قضائها مع الأحبه بالسفح وظل عالماً
بها وعلي ظمناً للامتاع بها وهو يدعو لعهدا بذلك الدعاء القديم
الموزون أن يسقيه الغيث ، وهو يتمني أن يفدي ذلك العهد ، ولو
صح ذلك لضحى في سبيله بما يملكه من مال أو إبل أو شاه أو
خيل أو غير ذلك فإن المال لا يجني له من اللذة ما يجنيه من لقاء

(١) انتنينا: انصرفنا . رايت ظواهرنا : أوهمت الريبة وهي التهمة

(٢) حيداً الأمر: هو محبب جعل حب وذا كلمة واحدة . ولمة: جمعه

(٣) النهلة للشرية الأولى . وأعداء عليه : نصره وأعداءه وقراء .

(٤) الحكم بفيتين الحاكم .

(٥) الريق للرضاب وماء الفم والريقة أخص منه الأنام جملة الناس .

(٦) ساعفه ساعده أوواتاه في مصافاة ومهاونة والمكان المساعف القريب .

والبين البعد ونوملم واد ينحدر علي سوق الذنائب وهو قرية

بالمين تقع دون زبيد .

(٧) استجد الشيء وأجده وجبده صيره جديداً .

(٨) الأبدال : جمع بدل وهو الخلف منه ، ويتكل ويدل لغتان كمثل ومثل وشبه

وشبهه ونكل قال أبو عبيدة لم يسمع في فعل وفعل غير هذه الأحرف

الأربعة (اللسان/بدل)

الأحبة . وهو يذكر أنه لم يشبع من لقاء الأحبة فهو شديد اللهفة ، صميق الآسى وهو يتمنى اللقاء فربما زاده شوقا وشأن المجبيين أن يعودوا بالوصال أكثر ظلماً ومن ثم فهو في زفرات حارة يتجرع كأس الندم ، إنه سيقضي عمره في حسرة ، علي لقاءهم وإن دنا لا يبلغ مداه !.

وهو يهيب في القوم - إن كانوا فاعلين - أن يردوا عليه لياليه الخوالي فما كان له أن ينساها ولا يفتر عن ذكرها .

ثم يرد علي من يلومه في حبه فيقول له :
(نق الهوى وإن استطعت الملام لم) أي لو عرفت الهوى فئن تلوم محبا ، فكم ذا يلاقي الشخي من الخلي ! ولله در من قال :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده * ولا الصبابة إلا من يعانيتها

وقال الآخر :

ومما زادني في الناس بغضاً * شكايتي من الخسيس إلي الخسيس

(٦-٨) هي وقفة عند جمال محبوبته ، قرب حسناء لها من الجمال ما للطيباء من رشاقة القد ، وضمور البطن ، ولطف الخصر ، فأغناها ذلك عن التحلي بذهب أو فضة سعدنا بها وهبت الريح من حولنا تجاذبنا فضول الثوابنا وتعبت بما سال من لعمري فعل الغيور مما بيننا من الوجد واللقاء .

وإن شذا الطيب الذي يعبق بالمكان فيدل علي مكاننا فكانه يفعل ما يفعل الواشي كما كان يلعب البرق في مكاننا فيهدي الناظرين إلينا وكذلك يبرق ثغرها المشرق فينير حولها فأهتدي إلي فمها .

(٩-١٣) وهي تحكي قصة اللقاء والطهر والوفاء ، فهذه الحسناء علي الرغم من أنها تحاكي الطيبة جمالاً وعلي الرغم من شوقي إليها وقد طال فلم تكن ضجيعها في إثم ولا ريبة إن حبنا حب روح لا حب جسد كان حياً عفيفاً ، وقد أكدت لها العهد علي الوفاء وللشرف لا أهفو لدنس ولا مائث وهكذا كان ليل الوفاء والاستمتاع الجاهر ولهذا كانت غفلة حتي آنن الصبح بتغريد

العضفور بينما كنت حريصاً علي كتمان الصبح عنها ونهضت أو
دعها فالمتنبى كفا تحكي أصابعها المخضبة أغصان العنم .
ثم عدنا من مغاني الأتس وانثينا عن مراتع الإسعاد ظاهراً
مريب وباطناً عفا كريم .

(١٤ - ١٦) عود علي بدء فما أجمل تلك الذكريات وما أطيب أن
تعود ثانية بوقفة معك ابتها الحبيب قرب منازل الحي لنملاً
عيوننا وقلوبنا بالأتس كم أتمنى أن أستمع بنهلة من فمك تُعيني
علي ما أعانيه من الوجد إنه دين لي عليك وفي قضائك لي به
حياة وإن لم تشأني قضى به الله ، وهو خير الحاكمين .
ثم يعجب لحبيبة تضن عليه بريقها بينما هو يجود لها بروحه
ويبدل لها من دون العالمين دمه راضياً ثم يقول : إنه يحيى في
ذكرى أحبته ولا ينسى عهدهم فيكاؤه عليهم دائم ووجده بهم هائم
وما يصانف فؤاده هوى جديداً بعدهم إلا آثار شجونه عليهم
وحرك في فؤاده الصبابة والوجد ، إنه سيعيش وفياً لهم رغم ما
بينهم من بعد مشتاقاً لهم مشدود الفؤاد إليهم فهو لا يرضى أحداً
بديلاً عنهم ولا هو يُغتن بغيرهم .

(ب) الشذوق الأدبية :

١- استطاع الشاعر أن يشدنا لنعايشه ذكرياته وأن يرجع بنا إلي
ماضيه السعيد خاصة حينما نحب ونلتقي بالأحبة فلا يُجرح بينهم
شرف ولا يعتدى فيهم علي عفاف !
إن القارئ ليحس بأسى قلب شاعرنا الذي لم يقض لبانات ظفر
بها كما يحس بلفاته الطاهر واستمتاعه النقي البريء وتعلقه بتلك
الليلة المنصرمة وتمنيه لعودتها وبمناجاته لبيوت الحي وتمنيه أن
يرشف من فم الحبيب رشفة تذهب بلهيب أحشائه ثم يقودنا إلي
محكمة بين متقاضيين إذ أن له ديناً عندها فلما أن تقضيه وإما أن
يقضيه به الله الذي ليس عنه جور
والأفكار هنا واضحة : ولعل ذلك راجع إلي طبيعة فن الغزل
الذي يتطلب الوضوح ولا يناسبه الغموض فلا يليق أن يسوق

المحب أفكاراً غامضة أو من وراء حجاب ؛ لذلك جاءت الأفكار بما يشبه الارتجال فالتسمت بالوضوح والسلاسة والسطحية .

٢- والأفكار وإن كانت ذاتية فردية إلا أننا يمكن أن نعتبرها إنسانية عامة لأنها تقرر مبدأ العفة بل إن بريق الطهر كان هادياً للمحبين والعقلاء ، فما أحوجنا لأن نحس ونعف وأن نكون أوفياء في عهدنا ، ونسلم عواطفنا للريح تميل حيث تميل ، فأفكار القصيدة راقية وضرب لنا صاحبها مثلاً لعفة المحبين ولا عجب فهو الشريف الرضي الموسوي المنتسب إلى موسى الكاظم بن جعفر الصادق وينتهي نسبه إلى الإمام الحسين بن علي كرم الله وجهه ، وهكذا انعكست شخصية الشاعر وبيئته الدينية على الأفكار .

٣- وفي الأفكار تجديد وتقليد ، كما أن فيها شيئاً من المبالغة ، فهو يصور الريح حين تمر بينه وبين محبوبته بأنها كالغيرة مما بينهما من سعادة ومتعة ، وهو يجعل الطبيب وأشيا بينهما ، وهذه جذوة وطرافة دون شك ، وهو يصور الزمان مما يفدي ، والملازمة مما يهدى ، وهي صورة بيانية وأسلوب تهكمي طريف . والمبالغة فيها مقبولة فما علي المحبين لوم وليس هناك حد للمتغزل حينما يطلق العنان لخياله ، لعله يشفي في الخيال صدره وفي الغناء مواجعه

٤- أما أسلوب القصيدة فقد وفق الشاعر في اختيار معظم ألفاظه الموحية وتعبيراته المناسبة لمقام الغزل أو للوعة المحبين فمثلاً افتداء الماضي بكرائم المال والتعبير عن السعادة باللبائات وتجسيد الملام ، وجعله الريح غيورا ، والطبيب وأشيا ، وبروق الثغر يضئ حوله . كل هذه التعبيرات دون شك موحية ومعبرة عن المعنى ومناسبة للمقام

وقد شاعت الصور البيانية في القصيدة مما يشهد بحنقه ومهارته كجعله الطبيب وأشيا ، والعصفور متكلماً ، وقضاء دينها عليه حياة وكذلك افتداء الزمان ، وإهداء الملازمة ، والكناية عن طلوع

الصحيح بتكلم العصفور ، وذلك كله مما أثار التشويق والانتباه إلا أن جلاء الأفكار وسذاجتها أدّى إلى كلمات غير شاعرية من مثل (تكلم العصفور) بدلا من تغريده ، وقوله : (لا تطلبن لي الأبدال) فكلمة الأبدال غير شعرية ، وكذلك كلمة (ثانية) في قول : (ألا عدت ثانية) و(بالرمل ثانية) فهي كلمات لها من الجفاء ويبس الملمس أي أنها كلمات عقلية بحتة تناسب الأسلوب العلمي لا الأدبي العاطفي .

كما أدّى ارتجال الأفكار إلى عدم العناية بترتيبها فالجمل لا تصل إلى حد التآخي وقوة النسيج وأدى ذلك إلى مأخذ ثالث وهو أن معناه يفوق لفظه أو أن فكرته-على العموم- تنمو على الأسلوب -٥- وأما عاطفة الشاعر فهي واضحة الصديق فالقارئ يحس بالصديق ولربما أدّى ذلك إلى مشاركة الشاعر في تأثر وجدانه باللقاء وتلازم الروحين في طهر وعفاف وبعد عن التهم وإن رابت ظواهرهما .

* * * * *

الشاعر الفيلسوف: أبو العلاء المعري

تعريف بالشاعر: (١)

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التتوخي ولد في يوم الجمعة الموافق ٢٨ من ربيع الأول سنة ٣٦٣ هـ في معرة النعمان أي أنه ولد بعد وفاة أبي الطيب المتنبّي بشع سنوات . ويُعدّ أبو العلاء المعري خاتمة شعراء العصر العباسي الثاني ، كما كان أبو الطيب المتنبّي فاتحته !

وكان ولد أبي العلاء قد كناه بأبي العلاء ، فلما شب شاعرنا عن الطوق كره تلك التسمية أو تلك التكنية بينما أحب أن يطلق عليه (رهين المحبسين) * العمي - الدار * وقد سمي نفسه بذلك بعد أن عاد من بغداد وأراد اعتزال الناس وكان له محبب ثالث هو جسمه الذي حبست فيه روحه ، وقد عبّر عن ذلك كله في قوله :
أراني في الثلاثة من سجونتي * فلا تسأل عن الخبر النثيب (٢)
لفقدي ناظري ولزوم بيتسي * وكون النفس في الجسم الخيبث

وكان أبو العلاء قد نشأ في أسرة كريمة تجمع بين العلم والجاه أو الأدب والسلطان فقد كان أبوه من أهل الأدب وتولى جده قضاء المعرة ، وكانت أمه وأخواله من أسرة وجيهة تعرف بالسيبكية ، وكانت معرة النعمان في ذلك الوقت تحت سيطرة الدولة الحمدانية وأميرها أبو المعالي سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني أصيب الشاعر منذ طفولته وفي سن مبكرة بالجدري فلم

(١) راجع أوج التحري عن حيثة أبي العلاء

المعري تأليف يوسف اللندي ص/ط وما

بعدها مطبعة الترقى بدمشق سنة ١٩٤٤م

وكتاب نبع أبي العلاء في سجنه للدكتور ط

حسين ط ١٢ دار المعارف القاهرة .

(٢) اللثيب الرديء الخيبث أو تراب البئر إذا حفرت .

يكذب يتم الثالثة من عمره حتى ذهب الجدرى بيسرى عينيه وغشي
 يمانها بياض فكف بصره وهو صغير وقد كان لذلك أثره العظيم
 في تحويل مجرى حياته ، فقد أخذ يُلْقِن النحو واللغة إلى جانب
 الدروس التي كان يتلقاها من العلماء والقضاة والشعراء في محيط
 أسرته ثم علماء بلدته ثم رحل به أبوه إلى مدينة حلب ليمسح باللغة
 والأدب من علمائها وأدبائها - يحدوه في ذلك رغبة جامحة وقلب
 ذكي واستعداد للعلم موروث فهو القائل " ما سمعت شيئاً إلا
 حفظته ، وما حفظت شيئاً ونسيتهُ " وأنا أحمد الله على العمى
 كما يحمد - غيري على البصر وقد اتفق المؤرخون على أنه
 قرض الشعر قبل أن يتم الحادية عشرة من عمره وما بلغ
 العشرين من عمره حتى اكتملت ثقافته وأصبح علماً من علماء
 اللغة وأدبها فقد استفاد دون شك - من تجواله وترحاله بين البلاد
 طلباً للعلم وكان والده قد تولى القضاء بحمص ثم توفي بها أو
 بمصر النعمان وذلك في سنة ٣٧٧هـ أو في سنة ٣٩٥هـ ولقد
 كان لموته فاجعة في نفس أبي العلاء الشاعر حيث تركه بصارع
 للدنيا بعاهته وربما كان هذا لأبي العلاء أن يرحل إلى بغداد لأن
 معرفة النعمان ل تحقق له شهرة أو مزيداً من العلم فارتحل إلى
 بغداد سنة ٣٩٨ هـ وهو في السادسة والثلاثين من عمره .
 ولقد كانت تلك الرحلة حداً فاصلاً بين شطرين من حياته ففي
 بغداد نزل على شط نهر دجلة واطلع على فلسفة الهندود واتصل
 بالرهبان فأخذ يأخذ عنهم فلسفة اليونان ثم غادر بغداد سنة
 ٤٠٠هـ ويشاء القدر أن يعد له فاجعة أخرى هي وفاة أمه التي
 ودعت الدنيا في غياب ولدها وكان لمتها أيضاً أثر في نفس أبي
 العلاء ، وقد عبر عن ذلك بقوله :
 مضيت وقد اكتملت فخلت أتي * رضيع ما بلغت مدى اللطام

ولقد ألزم نفسه منذ ذلك الحين بسجن رابع وهو زهده في مطعمه
 وملبسه بل والزهد في كل متع الحياة ولذاتها ، فلم يلبس إلا خشن

الثياب ولا يطعم سوى العدى والتين : لومن نبات الأرض ماعدا ذلك قد حرمه علي نفسه ، فحرم عليها أكل لحوم الحيوان وما أنتجته من اللبن والبيض ، كما حرم عليها أكل السمك وعسل النحل ، واقتصرت علي النباتات رحمة بالحيوان ، ويبدو أنه اقتبس ذلك من آراء البراهمة الهنود ، فذهب مذهبهم رقياً بالحيوان وتجافياً عن إيلاهم .

ولعل موت أمه في غيبته وهو في طريق عودته من بغداد دون أن يراها ، وكذلك موت أبيه وأخيه وفقد عينييه ، وشدة فقره قد وسوء معاملة الناس له كل هذا أكمل له الأسباب التي دفعته إلي الزهد والاعتزال وهو ما وافق غريزته التي عبر عنها بقوله عن نفسه : " إنه وحشي الغريزة أنسي الولادة "

لقد فرض علي الزهد علي نفسه حتى سمي (صائم الدهر) وظل علي هذه الحال نحو نصف قرن من الزمان فلم يرجع عن قراره وزهده ، حتى وهو في مرض الموت قيل إن الطبيب وصف له لحم فروخ غداء وأتوه به فلمسه وقال : " استضعفوك فوصفوك هلا وصفوا شبل الأسد " ؟ وأبى أن يذوقه ، وكان مما قال :

أنا صائم طول الحياة وإنما • فطري اللحم . يوم ذلك أعيد وقد اتهم أبو العلاء بالزندقة والإلحاد وقد اختلف المحللون لهذه التهمة ، وربما تكون حقيقة في بعض أطوار حياته . علي أن بعض التهمة يرجع إلي كثير من غريب ألفاظ أبي العلاء ، وبعد مراميها ، ورمزيته التي كان كثيراً ما يستخدمها .

مكانته الاجتماعية :

والجدير بالذكر أن نقف عند إنسانيته : فلم يكن بمقدوره أن يعزل الناس عنه ويمنعهم من الوصول إليه أو يحجبهم عنه ، فقد وفدوا عليه جماعات وفرادى ينهلون من علمه وأدبه ، وهكذا توافر عنده ذلك الجانب الاجتماعي برغم ما أخذ نفسه به فهو القائل :
الناس للناس من بدو وحاضرة • بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

وقال أيضا :

ولو أني خيبت الخلد فردا * لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت علي ولا بارضني * سحائب ليس تنتظم البلادا

ولقد قرض الشعر في حديثه - كما مر - بيد أنه لم يجعله وسيلة
للكسب ولم يكن من دأبه أن يمدح إنسانا رغبة في ثوابه أو طمعا
في ماله كما حدثنا عن ذلك في كتابه (سقط الزند) وكان يرتزق
من حصة في وقف تدر عليه ثلاثين دينارا في العام ينفق نصفها
علي من يخدمه

مكانته العلمية

لقد وفد الناس علي أبي العلاء من هنا وهناك ينهلون من علمه
وفضله ، وكان كريما في عطائه ، صاحب آراء جريئة في الدين
الامر الذي جعل الناس تختلف في الحكم عليه ، فقد كان متشائما
يكره الحياة زاهدا فيما عند الناس ، وقد اتهم بالكفر والزندقة
والتشكيك في الدين والمجادلة في نظام الكون وحكمة الخالق ،
وهو يقيح الزواج ، ويعد النسل جنائية ، ويرى ألا تعمل المرأة
غير الغزل والنسج وخدمة البيت ، وهو يعترف بالخلق ، ويؤمن
بالبعث ، والدين عنده أن يعمل المؤمن خيرا لا أن يكثر من
الصلاة والصوم ، ولهذا كان شديد الهجوم علي الفقهاء
المتظاهرين بالدين فيقول مثلا :

ويعجبني فعل الذين ترهبوا * سوى أكلهم كد النفوس الشحانح
ويقول أيضا :

سبح وصل وطف بمكة زائرا * سبعين لا سبعا فلتست بناسك
جهل الديانة من إذا عرضت له * أطماعه لم يلف بالتماسك
ويقول عن منافق :

يُحرم فيكم الصهباء صبحا * ويشرئها علي عمم مساء

وله آراء في الحج والميراث والحدود والغيبيات والسمعيات. الأمر الذي أثار حفيظة أهل الدين واللغة والغيورين علي الإسلام ولقد حدث الرواة عن ملكاته بما يشبه الأساطير ، ومما يحكي في ذلك أن أهل حلب سمعوا بذكائه وهو صغير فسافر جماعة من أكابرهم ليمتحنوه فقال لهم وهل لكم في المقافاة ؟ فجعل كل واحد ينشد بيتاً وهو ينشد من حفظه علي قافيته حتي فقد حفظهم فقال أعجزتم أن يعمل الواحد منكم بيتاً عند الحاجة ، إليهم علي القافية التي يريد ؟ قالوا فافعل أنت ذلك ، فجعل كلما أنشد واحد منهم بيتاً أجابه من نظمه علي قافية البيت حتى قطعهم جميعاً !. وهكذا طبقت شهرته الأفاق إذ كان في القرن الخامس بحلب مثل (ابن خالويه) في " القرن الرابع " كما طار صيته خارج العراق والشام بعد أن اتصلت الرسائل بينه وبين عظماء الإقليمين حتي لقد رحل (الخطيب التبريزي) إليهم من خراسان ماشياً . ولقد خلف أبو العلاء وراءه تراثاً أدبياً أفاد العربية ومن ذلك :

١- ديوانه (سقط الزند) وهو يجمع شعره في شجابه وتراه فيه واضح التكلف كثير المبالغة والتقليد للمتنبى كما جاري شعراء عصره في تكلف البديع واستعمال الغريب .

٢- (اللزوميات) وهو ديوان عظيم جمع فيه شعره في شيخوخته أي بعد زهده وعزلته وقد التزم في قافيته بما لا يلزم في الوزن والقافية وضمه كثيراً من أرائه .

٣- مؤلفات نثرية ومن أشهرها : رسالة الغفران ، وكتاب الأيك والغصون ، وملقي السبيل وزجر النابح وغيرها . وحق له أن يقول :

وإني وإن كنتُ الأخير زمائه...لأت بما لم تستطعه الأوائل

وفاته :

ظل الشاعر ملتزماً بما عقد عليه العزم مستسلماً حتي وافاه أجله في الثالث عشر من ربيع الأول سنة ٤٤٩ هـ بعد مرض دام ثلاثة أيام وقد أوصي أن يكتب علي قبره :

" هذا جناه علي أبي وما جئت علي أحد " .
ولقد وقف علي قبره أربعة وثمانون شاعراً يرثونه وكان أعمقهم
تعبيراً في رثائه له الأمير (أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أبي
حصينة المغربي) الذي بكى فيه علمه وزهده وعفته وتقواه وكان
مما قال :

العلم بعد أبي العلاء مُضَيِّع * والأرض خالية الجوانب بلقح
ما كنت أعلم وهو يوضع في الثري *
أن الثري فيه الكواكب تُودع *
مات النهي وتعطلت أسبابه * وقضى التأوب والمكارم أجمع
تتصرم الدنيا ويأتي بعده * أمم وانت بمثله لا تسمع

في الفخر لأبي العلاء المغربي : ♣

- ١ -

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل^(١)
أعندي وقد مارست كل خفيضة يصدق واش أو يخيب سائل^(٢)
أقل صدودي أنني لك مبعوض وأيسر هجري أنني عنك راحل
إذا هبت الكباء بيني وبينكم فأيسر شيء ما تقول العوائل^(٣)

- ٢ -

شعد ذنوبي عند قوم كثرة ولا ذنب لي إلا العلاء والفضائل

♣ ديوانه: راجع شروح مسقط الزند القسم الثاني من ٥١٩ وما بعدها
للقصيدة السادسة عشرة ط/دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٦
(١) للمجد : العز والشرف ، والحزم : ضبط الأمر والأخذ فيه بالثقة ،
والنائل : المعطاء ، والإقدام : الشجاعة .
(٢) مارست : عالجت ، والخفية : المسألة الغامضة التي خفيت واستترت .
(٣) الكباء : الريح تهب بين ريحين ، والعوائل : للتمون .
الأنام الخلق ، وطلت : توقفت ، والطوائل : الثارات

كأنني إذا طلعت الزمان وأهلسه رجعت وعندي للأنام طوائف^(١)
وقد سار ذكرني في البلاد فمن لهم بإخفاء شمس ضوؤها متكامل
يهم الليالي بعض ما أنا مضمّر ويثقل رضوى دون ماأنا حامل^(٢)
وإني وإن كنت الأخير زمانه لآتي بما لم تستطعه الأوائل^(٣)
وأغدو ولو أن الصباح صوّارم وأسري ولو أن الظلام جحافل^(٤)
وإني جواد لم يُحل لجأسه ونضو يمان أغفلته الصيقل^(٥)
وإن كان في ليس الفتى شرف له فما السيف إلا غمده والحمائل^(٦)
ولما رأيت الجهل في الناس فاشيا تجاهلت حتي ظن أني جاهل^(٧)
فواعجبا كم يدعي الفضل ناقص ووا أسفا كم يُظهر النقص قاضل^(٨)
وكيف تنام للطير في وكناتها وقد نُصبت للغرقدين الحبال^(٩)

- ٣ -

يناقض يومي في أمسي تشرفا وتحسد أسحاري علي الأصائل^(١٠)

- (١) الأنام الخلق ، وطلعت : تفرقت ، والطوائف : الشارات
(٢) يهم الليالي : يحزنها ويقلقها ، ورضوى : جبل ببلاد العرب يقع بين المدينة وينبع .
(٣) غدا غدا من باب قعد : ذهب غدوة ، والغدوة ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس ، وأسري : أسير ليلا ، وصوارم : سيوف ، والجحافل : جمع جحفل وهو الجيش العظيم .
(٤) الجواد : الفرس ، نضو يمانى : سيف يمانى ، ونضو ومنتضى أي : ممثل من غمده ، والصيقل : جمع صيقل وهو صانع السيف .
(٥) اللئيم يكسر اللام وضمة اللام واللباس والمليس كل ما يلبس ، وضد المنيف : جرابه ، والحمائل جمع حمالة وهي ما يعلق بها السيف .
(٦) فاشيا : منتشر ، وتجاهلت : ادعيت الجهل .
(٧) واعجبا ووا أسفا : انقلبت باء المتكلم ألفا .
(٨) وكنات الطير : الأماكن التي تأوي إليها ، ومفردها (وكن) ..
(٩) والغرقدان : نجمان في السماء .
(١٠) السحر : يقتحنتين : قبيل طلوع الفجر وبضممتين لغة والجمع أسحار ، والأصائل : المعنى وهو من بعد صلاة العصر إلي الغروب ، والجمع : أصائل وأصائل .

وطال اعترافي بالزمان وصترفه
فلو بان عضدي ما تلسف منكبي
إذا وصف الطائي بالبخل مادر^(١)
وقال السها للشمس أنت ضئيلة
وطاولت الأرض السماء سفاهة
فياموت زُرْ إن الحياة زعمية
إذا أنت أعطيت السعادة لم تُبَل
فإن كنت تبغي العز فابغِ توسطًا
توقى البدورِ النقص وهي أهلة

فلست أبالي من تغول الغوائل^(٢)
ولو مات زندي ما بكته الأنامل^(٣)
وعير فسا بالفهامة باقل^(٤)
وقال الشجي يا صبح لونك حائل^(٥)
وفاخرت الشهب الحصى والجنائل^(٦)
ويا نفس جدي إن دهرك هازل
وإن نظرت شزرا إليك القبائل^(٧)
فعدت للتاهي يقصر المتناول^(٨)
ويدركها النقصان وهي كوامل^(٩)

(١) صروف الزمان : أحداثه ، والغوائل : الدواهي ، وغالته : أهلكته .
(٢) بان : انفصل والعضد : مابين المرفق والكتف ، والمنكب : مجتمع رأس العضد والكتف ، والأنامل : أطراف الأصابع .
(٣) الطائي هو حاتم الطائي الجواد المشهور وأحد شعراء الجاهلية ضرب به المثل في الجود والكرم ، ومادر : لقب رجل من بني هلال اسمه مخارق ، ضرب به المثل في البخل لأنه سقى إبله وبقي في الحوض قليل من الماء فأحدث فيه حتى لا ينتفع إنسان من بعده ، وقس : هو قس بن ساعدة الأيادي أخطب العرب قاطية ، والفهامة : العي ، وياقل بن عمرو الأيادي ضرب به المثل في العي ، بلغ من خبره : أنه اشترى غزالاً بأحد عشر درهماً ، ولما سئل عن ثمنه عجز عن الإجابة فمض أصابع كفيه وأخرج لسانه ليكملها أحد عشر . !
(٤) السها : كوكب خفي صغير مع أوسط بنات نعش يسمى أسلم ، والدجي : الظلام ، لونك حائل : متغير .
(٥) الشهب : النجوم والجنائل الحجارة الكبيرة .
(٦) لم تبَل : لم تبال ولم تكثرث ، ونظرت شزرا إليك : نظرت في إعراض كظفر المياضن .
(٧) ليغ : أطلب والتناول : صاحب الطول وهو الفضل والمنة .
(٨) توقى : تتوقى وتتجنب ، والبدور : القمر عند تمامه .
(٩)

تحليل وتحليل :

سبيل الفخر :

الآبيات من (١-٤) وفيها يجمع الشاعر الأسباب التي لكسبته المجد والفضائل ألا وهي العفاف والإقدام والحزم ثم يتعجب بقوله : كيف يتوهم أنني أصدق وأشياً يزين المحال ، وأخيب سائلاً يرجو النوال وقد مارست الأيام وعلمت كيف تقلبها بالآثام ! والعرب تسمي كل من نمق الباطل وزينه وأشياً ، واشتقاقه من قولهم : وشيت الثوب أشيه^(١)

ثم يوضح أقل الصدود عنده وأيسره وهو الهجر والرحيل وهذه غاية الصدود ، وإنما ذكر هذا لأن الرجل قد يصد عن صاحبه من غير أن يبعثه فإذا انتهت به الحال إلي أن ينطوي له علي بغضه وحقدته فتلك نهاية الإعراض والصدود ، وقد يهجر الرجل صاحبه ولا يرحل عنه فإذا انتهت به المهاجرة إلي اختيار الرحيل فقد بلغ من مهاجرته الغاية والنهاية .

ثم يعرض للريح النكباء وهي التي تهب منحرفة بين مهبي ريحين أو لأنها نكبت عن الجهات الأربع وهي أربع وما بين كل ريحين نكباء ، وقد خص النكباء بالذكر لأنها أسرع من غيرها هبوباً ، ويشهد لذلك قوا القائل :

ولكننا في مهمة نزعج الخطأ * علي وجل هوج الرياح به نكبا
ويكون المعني علي ذلك كله : إذا بعد ما بيني وبينكم فأهون ما يقال خلفي : للبيت

حديث عن النفس :

الآبيات من (٥-١٥) هي حديث عن النفس فهو يمدح نفسه بما يشبه اللذم مبالغة ، فيذكر أنه لا عيب فيه البتة إلا أن يعتقد قوم أن

(١) راجع شروح سقط الزند القسم الثاني ط/دار الكتب سنة ١٩٤٦

الكريم عيب ، فيعد ذلك في ذنوبه ومعائبه ، ووجه ذلك أن
للخسيس الطبع لما كان مضادا للكريم الطبع صبار يعتقد في
المخاسن قبحا والعكس صحيح ، وذلك لأن خسته ونقصان فطرته
قد صوروا في نفسه الأمور بخلاف الحقيقة ، كما روي أن رجلا
قال للأحنف بن قيس " ما أبالي أمدحت أم هجيت " فقال الأحنف
: " استرحت يا أخي من حيث تعب الكرام !

وهو في البيت (السادس) يقرر ما سبق في البيت المتقدم ، فهو
إذا طاول الزمان - بأن كان بينهما عدوة وشحناء - فاقاة وتفوق
عليه ، ثم يؤكد ذلك بقوله : " وقد سار ذكرى في البلاد .. " والباء
في قوله بإخفاء شمس ، تتعلق بمضمرة تقديره : من يكفل لهم
إخفاء شمس ؟ ، وهو بهذا يؤكد لنفسه الحزم ، كما أكد الكرم
والجود من قبل ويكون المراد : أنه تفوق علي الناس وطي
زمانهم بعلمه وأدبه وأتي بالغريب المعجز من الأمور ، وقد
تصدى الكل لمحاربتة وكأنهم يطلبون ثارا عنده ، ولن ينالوا منه
شيئا بعد ما طبقت شهرته الأفاق وعرفه القاص والداني فهو
كالشمس ظهورا ووضوحا ، وهيهات أن يقدر إنسان علي إطفاء
نور الشمس !

وفي البيت (الثامن) يذكر أن يخفى في نفسه من الأمور العظيمة
والأفكار الجليلة التي لو احتملت الأيام جزءا منه لأهمها وأحزنها
ولو تحمل جيل رضوى بعض ما احتمل من علم ومعرفة لنساء
بحمله ... ثم ينتقل (في البيت التاسع) إلي فكرة جديدة فيقول
: إنني وإن سبقت بكثير من العلماء والشعراء والأنبياء إلا أنني
قادر علي الإتيان بما عجزوا عنه !

ثم يقف عند شجاعته ليوضح أنه لا يرهب شيئا فهو يسير في
الصباح ولو شُد الأفق بالسيف ويسير بالليل لا يخشى رهبته !
وفي البيت (الحادي عشر) يقول : إنني متأهب للقتال كالجواد
الملجم استعدادا للوثوب كالسيف المستل الذي غفل صانعوه عن
وضعه في غمده ، ثم يعرض لفضله بشيء من الواقع فيذكر أنه
لو كانت قيمة الإنسان في مظهره وملبسه لكانت قيمة السيف في

حمالته وجرايه ولم يقل أحد بهذا وإنما قيمة المرء بأصغريه قلبه
ولسانه ؛ ولهذا هو يستطرد إلى حفظ العلماء في سوق الجهل
فيقول : لما رأيت سوق العلم كاسدة وفضل العلم منكورا ورأيت
سوق الجهل رابحة تظاهرت بالجهل لأساير الناس في حياتهم
حتي انطلت عليهم الزور وحسبوني جاهلا ، والبيت يتفق مع مثل
قديم يقول : " من دخل ظفار حمر " أي تحدث بالحميرية .
وفي البيت (الرابع عشر) يتعجب من كل فاضل يتظاهر بالنقص
مجاراة للناس وليكون كأحدهم وهو يأسف على الناقص الذي
يتظاهر بالفضل والفضل منه براء .
من أجل هذا هو يسأل - وقد شبه نفسه بنجمين من نجوم السماء
فيقول : " إذا كنت مع علو قدري وعظيم منزلتي لا أسلم من ذم
الناس وعيبيهم وسهامهم - رغم فضلي - فكيف يسلم غيري ؟
وهو لا حول له ولا قوة ؟؟

عودة للفخر :

والآبيات من (السادس عشر وما بعده) عودة للفخر إنه يزداد
يوما بعد يوم فضلا لدرجة أن يومه يفاخر أمسه وتحسد أسحاره
أصله لأنه أحرز في الوقتين الآخرين ما لم يحرز في السابقين ،
وقد يكون المراد أن يومه الذي يحصل فيه كان ينافس أمسه قبل
أن يفارقه فلما انتقل عنه إلى غيره صار أمسه ينافس ذلك الذي
انتقل إليه ويؤكد هذا قوله : في القصيدة نفسها :
وقد أغتدي وللليل بيكي تأسفاً علي نفسه والنجم في الغرب مائل
ثم يقول لقد خبرت الزمان وعرفت تقلبه وتصرفه ومن أجل ذلك
فإنني لا أهتم بأحداثه المهلكة ثم يقول :
إنني لو انفصل عضو من أعضاء جسمي أو مات لما تألم من
أجله العضو المجاور له ، ثم يقول في الآبيات (١٩-٢٢) : إذا
اختلت الموازين ، وضاعت القيم وتطاول السفهاء والحمقى علي
من هم رمز المكارم وعنوان المحامد ، والحال أنهم لا يصلون

إلى مواطني أقدامهم - فوصف (ماتر) (حاتماً) بالبلخ ؛
وعير (باقل) (قساً) بالعمى وهو أفصح العرب وأخطبهم (١) ، وقال
(السها) - وما أقل شأنه - للشمس العظيمة : أنت صغيرة ضئيلة ،
وقال الليل المظلم الحالك للصباح الأبلج لونك حالك متغير ،
وطاولت الأرض السماء علو قدر وارتفاع مكان ومنزلة وفاخرت
الحصى الشهب في البريق واللمعان ... إذا : فباطن الأرض خير
من ظهرها ، وأصبحت حياتنا - حينئذ - تافهة حقيرة وخليق
بالروح أن تفارق الحسد إلى بارئها لتسعد بالحياة الفضلى السامية
- الحياة الآخرة -

وفي البيت (الثالث والعشرين) نقب عند حكمة جلييلة استخلصها
من تجاربه في حياته ألا وهي قوله : " إذا أنت أعطيت السعادة
أي وفقت في عملك وشعرت بالسعادة فلا تكثر بشيء ، ولو
نظر الناس إليك نظرة بغض لأن منشأها الحقد عليك والغيرة منك
ثم يتابع حكمته فيقول إذا رغبت في الرفعة فاطلب منزلة وسطي
لأن الوصول على القمة يعقبه انحدار كالأهلة يزداد ضوءها يوماً
بعد يوم حتى إذا ما اكتملت بدأ النقصان يطرا عليها شيئاً فشيئاً
! (فكل شيء إذا ما تم نقصان)

مناقشة الأفكار:

- ١ -

تعد هذه القصيدة من أبلغ شعر أبي العلاء المعري ، فعلى الرغم
من إنشادها في الحقبة الأولى من حياته إلا أن الأفكار تحتاج إلى
روية وإعمال فكر ، ولعل أهم الأسباب إنما ترجع إلى أن أبا

(١) قيل إنه عاش ٣٨٠ سنة وقال المرزباني: تذكر كثير من أهل العلم أنه
عاش ٦٠٠ سنة وهو أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية وأول توكأ على
عصا أو سيف وأول من قال : أما بعد وأول من كتب من فلان إلى فلان
ابن فلان وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : رحم الله قساً بني أرجو
أن يبعثه الله أمة وحده * (خزائن الأدب للبخاري ج ٢ ص ٨٣ ، ٩٠) تحقيق
عبد السلام محمد هارون ط القاهرة ١٩٨٦ م

العلاء قد جرى شعراء عصره في استعمال الغريب للمقدرة الشعرية عنده ، ولذلك وهو كثير ما يجنح إلى الفلسفة فتأتي أفكاره عميقة المغزى بعيدة المدى - سواء أكانت قديمة أم مبتكرة- وهي هنا ملهمة مترابطة .
ولعلنا نعجب للشاعر - وقد حزم البصر - وهو يفاخر بشجاعته ويتغنى بنزله ويزعم أنه لا يرهب ولا يخاف ، وهو يسير في الصباح ولو سد الأفق بالسيوف ويسير بالليل ولو كانت له رهبة الجيوش ، وعني عن البيان - في الوقت نفسه - أنه يحتاج إلى من يأخذ بيده ليرشده
وما تلك البراعة - في اعتقادي - إلا تعويض عن ذلك النقص الخلقى - وهو يملك تلك الموهبة الفذة التي تصور المعارك في دقة تفوق ريشة الرسامين وروعة المصورين المبصرين -

- ٢ -

وأفكار الشاعر ذاتية بحتة : فهي صورة لتجربة شعرية انفعلى الشاعر بالأمها، وعاشها حسا ووجداناً فانعكست عليها ملامح شخصيته المتشائمة كما اتضحت فيها نفسيته المتبرمة وفلسفته في الحياة أيما وضوح .

- ٣ -

من أجل هذا نجامت عاطفة الشاعر صداقة تشد القارئ لمشاركته في محنته صديقة وهو يتحدث عن انصراف الناس عنه لسوء مظهره ورثائه ثيابه غير عابئين بعلمه وأدبه وسعة أفقه ووفرة معارفه وما أظلم الناس حينما يجعلون المقاييس والمعايير مبنية على المظهر للخلاب والرواء الخادع منصرفين عن النظر إلى تقدير الحقائق وهاهو ذا يرد عليهم بقوله :
وإن كان في لبس الفتى شرف له * فما السيف إلا غمده والحمائل

والقصيد يطلب عليها التقليد للسابقين : والجري علي سنتهم ولا سيما تقليد أبي الطيب المتنبي فالقارئ للقصيدة - لأول وهلة - يري أنها تقليد للمتنبي ، حيث تضمنت بعض حكم المتنبي وأرائه ونظراته في الحياة ، ونظراته للناس عامة ، ولأعدائه خاصة ! نعم : لقد قبل أبو العلاء علي شعر المتنبي إقبالا ما عرف من شاعر آخر فتأثر بأرائه السياسية والاجتماعية والدينية ، فالمتنبي مثلا يقول :^(١)

تمتع من سهاد أو رقاد * ولا تأمل كزى تحت الرجام
فإن لثالث الحالين معنى * سوى معنى انتباهك والمنام
نرى شيئا لهذه الصورة في لزوميات أبي العلاء وحين يغمرنا أبو العلاء بفلسفته التأملية حيناً وزهده في الحياة حيناً ثانياً ونمسه للمرأة ، وكشفه لأصبيها النفسية والجنسية من أجل بقاء النوع حيناً ثالثاً ، وحين يدعونا إلي ترك النسل لتعطيل العالم ، نجده إنما يحاكي أستاذه المتنبي حين يقول :^(٢)

هل الولد المحبوب إلا ثعلبة * وهل خلوة الحسنة إلا أذى البعل؟
وما الدهر أهلك أن تؤمل عنده * حياة وأن يُشتاق فيه إلي النسل
وفلسفة الموت كذلك ربما كانت صدي لقول المتنبي في الموت:
أنكي لموتانا على غير رغبة * تقوت من الدنيا ولا مؤهب جزل
إذا ما تأملت الزمان وصرفه * تيقنت أن الموت ضرب من القتل
وقوله أيضاً :^(٣)

يُدفن بعضنا بعضاً وتمشي * وأخبرنا علي هام الأوالي
ونعود إلي القصيدة التي نحن بصددنا فنري أبا العلاء يتحدث عن حساده ، ومنكري فضله ، وهو يخاطبهم مفتخراً بنفسه معجياً بها معدداً فضائله ومكارمه شديداً بمكانته مبيناً عظيم قدره ولم

(١) ديوان المتنبي ص ٤٨٥ ط بيروت

(٢) ديوانه ص ٢٨١ .

(٣) ديوانه ص ٢٦٨ .

يفتته أن يتحدث.. عن تحدي الأيام وتصديها لحريته والتصديق عليه شأنه في ذلك شأن أسناده المتنبي - إن صح هذا التعبير - ولكنه لا يعبا بها ولا يكثرث فيقول :
وطال اعترافي بالزمان وصرفه • فلست أبالي من ثغول الغوائل
فلو بان عضدي ما تأسف منكبي • ولو مات زندي ما بكته الأنامل
وقد سبقه المتنبي إلى هذا المعنى ، وهو يقول :^(١)
وهان فما أبالسي بالرزايا • لأتسي ما انتفعت بأن ليالي
وقول أبي العلاء :

لدي موطن يشأقه كل سيث • ويقصر عن إدراكه المتناول
شبيه بقول أبي الطيب المتنبي :^(٢)

ويجهل أني مالك الأرض معسر • وأني على ظهر السماكين راجل
وقد يكون هناك أكثر من سبب جعل من المعري مقلداً للمتنبي
وهذا ما جعل الدكتور طه حسين يعقد بينهما (موازنة) فيقول :
"وأما أبو الطيب فقد نشأ وعاش في عصر قريب من عصر أبي
العلاء مشبه له في أكثر خصاله ، وقد شارك أبا العلاء في ذكاء
القلب ونفاذ البصيرة وفي التفوق والنبوغ ، وشاركه في الشعور
بفساد الحياة العامة للمسلمين من جميع أتحانها وشاركه في
الشعور بتفوقه وامتيازهم وفي اعتداده بنفسه ولكنه لم يشاركه في
هذه الآفة التي اضطرتته إلى العجز وأخذته بالوجدة وفرضت
عليه الاعتزال ومع أن أصول الفلسفة العلائية توشك أن توجد
كلها في شعر أبي الطيب.. ومع أن أصول الفن العلائية يوجد
أكثرها في شعر أبي الطيب.. ومع أن أبا العلاء كان مقلداً لأبي
الطيب مفتوناً به حتى لنستطيع أن نعهده تلميذاً من تلاميذه ، مع
هذا كله فما أعظم الفرق بين الرجلين لا في حياتهما العملية
وحدها بل في حياتهما العقلية أيضاً ! كان أبو الطيب عبداً

(١) ديوان المتنبي ص ٢٦٧ .

(٢) مالك الأرض نصيب على الحال أي يجهل هذا الرجل أني إذا ملكك
الأرض كنت في حال العسر عند نفسي (المعبري ج/٢ ص ١٣١)

لشهواته بشرط ألا نفهم من هذه الشهوات شهوات اللذة والفسوق ونعيم الحياة ، وإنما نفهم منها شهوات أخرى معشاة ببعض الشيء شهوات الثروة والفني والاستعلاء على الناس . ولتفق حياته كلها في إرضاء هذه الشهوات واحتمل في سبيل ذلك ما يطاق وما لا يطاق ، ذاق مرارة البؤس واحتمل ذل السؤال ، وباع شعره في سوق الكساد ومدح من كان يحتقرهم أشد الاحتقار ، وتملق من كان يزدريهم أقبح الازدراء ودفع إلى المخاطرة والمغامرة انتهى إلى السجن وتعرض للموت ، وباع نفسه وحريته وكرامته للملوك والأمراء وتبذل رأيا برأي ومذهباً بمذهب وذل للفرس بعد أن كان لهم عدواً وبهم مغرباً وعليهم محرضاً ، وما زال يتقلب في هذا الفساد السياسي والخلقي حتى تلقاه الموت في بعض الصحراء فأراحه وأراح منه !

فأين هذا من أبي العلاء الذي لم يدع لنفسه شهوة إلا أنلها ولا عاطفة إلا أخضعها لسلطان عقله والذي اعتد بنفسه فارتفع بها عما تحتاج إليه الحياة من صراع ، وأثرها بالعافية وألزمها القصد والاعتدال ، وضمن بها علي الكذب والمين وعلي البيع والشراء ولم يرد أ ، يتشبه بالملوك والأمراء في ملكهم وإمارتهم ، ولا أن يطمع فيما يفيد عندهم الشعراء والأدباء والعلماء من رخيص اللذات يشترونه بأغلي الأثمان وإنما أراد ما هو أرفع من ذلك مكاناً وأبعد من ذلك منالاً وأجل من ذلك خطراً أراد أن يتوحد لأن الله واحد فقال :

توحد فإن الله ربك واحد * ولا ترغبن في عشرة الرؤساء وازن بين المطمحين ، وقس إلي ضعة أبي للطيب رفعة أبي العلاء إن كان يمكن أن تقاس الرفعة إلي الضعة ، ومع ذلك فقد لقي كل من الرجلين في سبيل مطمحهم ألماً شديداً لا يبلغها الإحصاء إلا أن ألام المعتنبي تقص فلا تنثير في نفسي إلا غيظاً وازدراء وقد تنثير في نفس غيري من الناس إكباراً وإعجاباً وألام أبي العلاء تقص فتثير في نفسي حياً وإجلالاً كما تنثير فيها عطفاً

وحناناً وإشفاقاً ، وما أرى أنها تثير في نفوس غيري من الناس
إزوراراً عن الرجل أو تتكرأ له أو استخفافاً به وأنا أقرأ شعر
الرجلين فأذكر قول أبي العلاء حين شفع إلي صالح في قومه :
فيسمع مني سجع الحما م وأسمع منه زئير الأسد ، ولكن زئير
الأسد كان يدل علي شيء حين كان يصدر عن صالح ولشبابه
من المغامرين الذين كانوا يعملون ولا يقولون فأما زئير الأسد
الذي كان يصدر عن المتنبّي فقد كان فارغاً لا يحتوي شيئاً ولا
يدل علي شيء ^(١)

لقد صمدت إلي هذه الموزانة ليتبين لنا كيف كانت المشابهة بين
الرجلين وإلي أي حد فتن الأخير بالمتقدم الأمر الذي جعل
الدكتور طه حسين يوازن بينهما ، ولعلنا نؤكد بهذا مدّي حرص
أبي العلاء علي تقليد السابقين ، ففي هذه القصيدة تقليد آخر لغير
المتنبّي كقول أبي العلاء :

وقد سار ذكرّي في البلاد فمن لهم * بإخفاء شمس ضوؤها متكامل
فقد شابه قول الأحرص : ^(٢)

إني إذا خفي للنائم وجنتني * كالشمس لا تخفي بكل مكان
وقول أبي العلاء :

ولما رأيت الجهل في الناس فاشيا * تجاهلت حتي ظن أني جاهل
هو من قول أبي فراس : ^(٣)

تغابيت عن قومي فظنوا غباوتي * بمقرق أعيانا حصي وتراب

الأخاط والأساليب :

تطالعنا الأبيات بهذا الاستفتاح " ألا في سبيل المجد " وقد كان
الأوجه " في البيت الأول " : أن يذكر العزم مع الحزم ليكون أبلغ

^(١) مع أبي العلاء في سجنه د/ طه حسين ص ٦٩ : ٧٢ ط / ١٢ دار

المعارف ١٩٧٩م

^(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري ص ٣٤٧ ط / ٢ / دار الكتب العلمية

بيروت ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

^(٣) ديوان أبي فراس ص ١٤ ط / ٢ بيروت ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م

في غرضه الذي قصده ولكن ذكره الإقدام أخناه عن ذكر العزم
لأن العرب تقول: " قد أحزم لو أعزم "
والاستفهام في البيت الثاني: للإنكار ، والمراد منه التعجب ، وقد
قصده أبو العلاء في البيت الثالث: المبالغة في مناقرة هذا المهجو
، فجعل الأمر الذي يعد نهاية الصد أقله وأنشأ لشدة مخالفته له
ومباينته إياه .

وفي البيت الخامس : نجد المبالغة المقبولة ، فليست للمعالي
والفواضل من الذنوب والمعائب ، وهذا شيء تستعمله العرب إذا
قصدوا المبالغة في المدح فيقولون : ما في فلان عيب إلا الكرم ،
ومعناه أنه لا عيب فيه البتة ! والاستفهام في البيت السابع : بمعنى
النفى وهو تأكيد وتقرير لما سبق . وفي البيت الثامن : نصب
الليالي ورضوى على المفعولية إلا أنه أسكن ياء الليالي ضرورة
، ودون هو الفاعل ، غير أنه ترك علي بنائه لما كان مضافاً
إلى مبني وهو (ما) ، ومثله قوله تعالى : لقد تقطع بينكم " فيبينكم
هو الفاعل سواء رفعت أو تركته علي بنائه لإضافته إلى (كم)
والبيت الحادي عشر: أجراه مجرى المثل وهو يروى برواية
أخرى هي : وإني جواد وأي جواد وأي مرفوع بالابتداء
وخبره محذوف كأنه قال : وأي جواد لم يحل لجامه أنا وأي
نصو يمان مغفل أنا ، وأي هذه تستعمل في مدح الشيء وتعظيمه
كتقوله : أي رجل زيد !

والبيت الثاني عشر : فيه نظر ، لأن الملبوس إذا أفاد لابس
شرفاً لم ينتج ألا يكون للسيف إلا غمده شرفاً ! وكان الواجب أن
يقول : وإن كان شرف الفتى في لابس .

وفي البيت الرابع عشر : يقرن العجب بادعاء الناقص للفضل
والأسف بإظهار الفاضل للنقص ، فوضع الألفاظ في المواضع
المناسبة للاتقة بها ولو عكس الأمر لأخل بالنظم وأوجد فيه
موضع نقد من ذوي الفهم ، والبيت السابع عشر : يذكر
الاعتراف بمعني المعرفة وهو يبلغ في المعنى ، فالزيادة في

المبنى زيادة في المعنى كقولك : كسب واكتسب وقدر واقتدر
قال النعمان بن بشير الأنصاري :
معاوي إلا تعطنا الحق تعترف * لحي الأزد مسدولا عليها العمام

وقال الآخر

إني لمرؤ بالزمان معترف * علمني كيف تؤكل الكنف
وفي البيت الثامن عشر: مشاكلة طريفة حيث قرن المنكذب
بالعضد والأتمل بالزند ، فضم إلي كل عضو ما يجاوره واستعار
للمنكذب التأسف وللأتمل البكاء لأن البكاء بالأتمل أليق منه
بالمكذب ولأن الأيدي توصف بالندوة والانسكاب وتشبه بالبحر
والسحاب والمنكذب لا يوصف بشيء من ذلك بل يوصف بحمل
الأثياع الثقيلة ، فكان وصفه بالأسف أذهب في الفحوى وأقرب
للمعنى ، لأن الأسف ثقل يحمله ، وعباء يتقله المتلهف ، وأما
البكاء فإنه يخفف ثقل الأسف ويزيل عبء التلهف ، ألا ترى إلي
قول أبي تمام :^(١)

نثرت فريد مدامع لم تنظم * والشمع يحمل بعض شجو المغرم
وقد استعار المعري للزند الموت دون البين لأن الموت أهول
الخطوب وأعظم علي المكروب من حيث كان من (بان) فيرجي
اقترابه ، والميت لا يؤمل إيباه فإذا كان لا يبكي للأعظم والأكبر
، فهو أخلق بالآ لا يبكي للأقل الأصغر .

وفي البيت الرابع والعشرين: يعرض رأيه في سياق الشرط ثم
يؤكد بما يشبه الحكمة فهو يري الرفع في المنزلة الوسطى من
العيش لأن القمة يعقبتها انحدار كالأهلة إذا ما اكتملت إلا أن
للرجل خالف قوله هذا في موضع آخر حيث يقول :
وأصبح واحد الرجلين إمسا * مليكا في المعاش أو ليلا^(٢)

(١) شرح ديوان أبي تمام . شاهين عطية ص ٢٩٤ ط دار الكتب العلمية بيروت
الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م .
(٢) الأبيات : الفصا أو الحزمة من الحطب والحشيش .

وعلي كل فالشاعر لم يكن موفقاً حينما جعل للطموح حداً وسطاً
وكان الأولي به والأجدر أن يترك النفس علي سجيته من التطلع
إلي معالي الأمور وعظائنها ، ولله در أحمد شوقي حينما قال :
شباب قنع لا خير فيه * وبورك في الشباب الطامحين

بيد أن أبا العلاء قد وفق في اختيار اللفاظ الملائمة للغرض
والمعنى الذي سيقته له في معظم قصيدته ، والصور البيانية
يشهد بعضها بحذقه ومهارته ، ويدل علي تصرفه وافتقانه فهو
يصور الزمان ممن يطاول في البيت السادس عشر ، وهو يجعل
المنكب ممن يأسف والأنامل ممن يبكي ن وهذا للتجسيد العظيم
علي سبيل المجاز .

موسيقى الأبيات :

ومما تميزت به الصياغة الفنية عند أبي العلاء إثباته القافية في
موضعها ، لا تأسره ولا تخضع لها أفكاره فجاء أثر ذلك في
شعره جمال أنغامه وحسن إيقاعه ، وبعده عن القلق وقد زاد من
رصانة اللحن في القصيدة موسيقى بحر الطويل ، واختيار
للشاعر حرف اللام الممدود قبلها قافية له ، ولعل هذا ما جعل
القارئ يحس باستقرار القافية وثقة الشاعر في نفسه عند الإنشاد .
وأما الموسيقى الداخلية فهي متمثلة في الإيقاعات الصوتية
والإنحاء الذي يملئه كل بيت نظراً لتلاحم لبناته وتوافق كلماته
ففيها إذن تلازم ظاهر واتسجام نغم ماهر .
والجدير بالذكر - علي الرغم من ذلك - أنني لا أعتقد دائماً في
أن محور الشعر لا يصلح أحدهما في موضع الآخر أو أن هذا
البحر يصلح لغرض من الأغراض دون الآخر بل المعمول عليه
غالباً هو قدرة الشاعر الفنية وشاعريته المتمثلة في إحكام النسج
، ودقة الصياغة وغير ذلك - مما ذكرناه في معني الشاعرية- .

من ألوان النشر الفني في العصر العباسي

أعلام ونماذج فنية :

أولاً: المقالة والرسالة:

تمهيد:

المقالة: فن أدبي عبارة عن قطعة نثرية محدودة الطول ومحدودة الموضوع تكتب بطريقة خالية من التكلف أو إرهاب القارئ ، وتعيّر عن كاتبها ولها ثلاثة عناصر :

١- مادة المقالة ويستمددها الكاتب من الموضوع ذاته ويشترط لوجودها أن تكون المادة صحيحة وفيها تجديد وتشويق

٢- أسلوب المقالة وهو يختلف من ذاتي إلى موضوعي ومن علمي إلى أدبي .

٣- خطة المقالة وهي تتألف من مقدمة موجزة قصيرة تقدم للعرض ، وعرض مفصل للأفكار والشروح والبراهين بتسلسل منطقي ثم خاتمة وهي تلخيص للنتائج التي توصل إليها الكاتب .

أما الرسالة : فهي خطاب مكتوب في عرض يبعث به صاحبه إلى آخر ، وهي نوعان إخوانية وديوانية (أو رسمية) ولكل منهما خصائص وأدب يختلف باختلاف الموضوع وطرفي التخاطب .

مدارس الكتابة الفنية :

كان الأسلوب السائد في بداية العصر العباسي هو: أسلوب "الترسل الطبيعي" وإمامه عبد الله بن المقفع "والترسل الصناعي" الذي خلفه عبد الحميد الكاتب ثم مالت الأساليب إلى: "التنويع والتفريغ والتحليل والتعليل" على يد أبي حنيفة الدينوري ، وطبقة من الأدباء في القرن الثالث ، أما في القرن الرابع فقد ظهرت الصنعة البيديعية المطبوعة على يد ابن العميد . ثم ما لبثت أن انقلبت بالمحسنات التي أسرف فيها القاضي الفاضل فظهر "التكلف البيديعي" في القرنين الأخيرين من الدولة ، ومما هو جدير بالذكر أن هذه المدارس ليس بينها حدود فاصلة ،

وليس كذلك محدودة بزمان أو مكان " ففي عصر الجاحظ كان ابن عبد ربه يقلد ابن المقفع ، وفي عصر ابن العميد كان الشريف الرضي يتفصح ببلاغة الإمام علي وما مقامات اليازجي والألوسي وعبد الله فكري في عصرنا الحاضر - إلا صدي لمقامات الحريري والبنيع وكذلك جاءت مرأة البشري " بطلانها الكاريكاتورية مرأة لنواذر الجاحظ ودعائه على الرغم من تقادم العهد وتعاقب السنين ومدرسة الترسل بفروعها المختلفة في العصر العباسي قادها أول الأمر عبد الله بن المقفع وقام أسلوبها على الترسل الطبيعي وعماده (الإيجاز والإرسال) ، فلا سجع ولا ازدواج إلا ما جاء عفواً ، وهو بذلك لا يخرج عن الأسلوب العام في القرن الأول كل هذه بلفظ سهل ، وأسلوب منس متين والربط خال من المبالغات ، وكانت عنايته بتجويد المعنى أكثر من احتفاله بجمال الألفاظ ..ومما هو جدير بالذكر أن مصرع عبد الحميد الكاتب بمقدم العباسيين لم يكن مصرعاً لطريقته فقد تفصح بها أعلام القرنين الثاني والثالث ومن بينهم أبو حنيفة الدينوري ، وأبو عثمان الجاحظ وابن قتيبة وقد جنحت طريقته إلى الإطناب بعد الإيجاز والازدواج بعد الإرسال فضلاً عن إطالة التحميدات بالازدواج ^(١)

سار هذا الاتجاه جنباً لجنب مع اتجاه ابن المقفع غير أن رواده كانوا كثرة غالبية حتى القرن الثالث وفي هذا القرن وعلي يد أبي حنيفة الدينوري ^(٢) مالت الأساليب الأدبية إلى التثويج والتفريع

(١) الازدواج هو اتحاد الفاصلتين في الوزن دون النقيصة ، كقوله تعالى: " ونمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة " ويرجع سر جماله - كما يقول ابن الأثير إلى الاعتدال وإذا كانت مقاطع الكلام معتتله وقعت من النفس موقع الاستحسان (المثل السائر ص ١٦٩)

(٢) هو أحمد بن داود الدينوري المتوفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين ، فارسي الأصل وكتابه: الأخيار الطوال هو الكتاب الوحيد الذي وصلنا وقد قسمه ثلاثة أقسام : الأول: تتأول فيه الأحداث التاريخية منذ آدم عليه السلام

والتحليل والتعليل وحملت مدرسة الدينوري لواء البيان منذ القرن الثالث الهجري عبر القرون حتي عصرنا الحاضر الذي ملأ السجع والغاز البديع فساد فيه الأسلوب المرسل ولم ينقطع تيار أبي حنيفة الدينوري نلمحه في التوازن والازدواج عند الرافعي والزيات ، والترديد والتكرار عند طه حسين والتحليل والتعليل عند العقاد والفكاهة والسخرية عند البشري .. الخ والخلاصة أن أساليب النثر الفني في العصر العباسي صارت من الترسيل الطبيعي إلي الإطناب والازدواج ثم إلي:
التعليل والتحليل والتفريع والتتويج^(١) وهو ما مال إليه الكتاب التابعون .

أبن العميد:

هو الأستاذ الرئيس^(٢) الوزير أبو الفضل محمد بن الحسين العميد كاتب المشرق وصاد ملك آل بويه وصدر وزرائهم نشأ شغوفا بمعرفة العلوم العقلية واللسانية فبرع في علوم الحكمة والنجوم ، ونبغ في الأدب والكتابة حتي قيل فيه (بدنت الكتابة بعبد الحميد وختمت بآبن العميد) وهو فارسي الأصل وقد ولي أبوه رئاسة ديوان الرسائل للملك * نوح بن منصور الساماني ملك بخارى ، فلقب بالشيخ كما لقب بالعميد جريا علي عادة أهل خراسان الذين يطلقون هذا اللقب علي من يلي ذلك الديوان ، ولقد ورث عن أبوه

وتاريخ الأمم والأنبياء من بعده ، ولشائي : تحدث فيه عن حياة الفرس مفصلة والثالث : تناول فيه حروب العرب مع العجم والفتوحات الإسلامية^(٣) راجع مدارس الكتابة الفنية بالتفصيل: في الأدب العباسي د السيد تقي الدين ص ٨١-٨٤ ط دار نهضة مصر الفجالة للقاهرة
(٢) راجع النثر الفني في القرن الرابع ج/٢ ص ١٩٣ ط ٢ المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، وجواهر الأدب: أحمد الهاشمي ص ٤٢٣ وما بعدها ط/٢٩ دار الفكر ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

للمكانة الاجتماعية ثم رحل عن أبيه إلي آل بويه وتقلد شريف الأعمال في دولتهم إلي أن تولى وزارة ركن الدولة سنة ٣٢٨ هـ فساس دولته ووطد أركانها وتشبه بالبرامكة ففتح باباً للعلماء والفلاسفة والشعراء والأدباء وكان يشاركهم في كل ما يعلمون إلا الفقه ، وما زال في وزارته محط الرجال وكعبة الأمل حتى توفي سنة ٣٦٠ هـ والنص الذي اختزنناه هو أحد الرسائل التي ضمنها ابن العميد كتابه (ديوانسي) وموضوعها في (اللوم والتهديد)

لـ (بلكا بن ونداد) وقد خرج علي ركن الدولة بن بويه وتمرد وشق عصا الطاعة وكان (ابن العميد) وزيراً له فكتب إليه رسالة تهديد ووعيد ، لأمه فيها علي خروجه وعلي ما اقترف ، وقد كان لهذه الرسالة من الموقع الجميل والأثر الحسن ما انزل بلكا عن استعصائه وأقنعه بخطئه وبلغ العتب من نفسه ما لم تبلغه السيوف القواطع ، حتي لقد قال " والله لقد أغنى كتابه عن الكتائب في عرك أديمي ^(١) وفي استصلاحي ، وردني إلي طاعة صاحبي .

يقول : ^(٢)

* كتابي إليك وأنا مترجّع ^(٣) بين طمع فيك وياس منك وإقبال عليك واعراض عنك فإنك تذل بسابق حرمة ^(٤) وثقت ^(٥) بسالف خيئة ، أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضي محافظة وعناية ، ثم

(١) العرك : الدلك والفرك ، والأديم : الجلد .

(٢) راجع النص كاملاً في بتيمة الدهر للعتابي ج ١٦٣/٣ وما بعدها تحقيق

محمد محي الدين عبد الحميد ط القاهرة .

(٣) ترجع : تئيب ومترجع : متئيب

(٤) تذل : من الإدلال وهو الانبساط وفرط الثقة بالغير ، والحرمة ما لا يحل

لنتهاكه ، ولذمة المهابة .

(٥) تمت : تتوصل

تُشَقِّعُهُمَا بِحَادِثِ غُلُولٍ ^(٦) وَخِيَانِهِ وَتُثَبِّعُهُمَا بِأَنْفِ ^(٧) خِلَافٍ وَمَعْصِيَةٍ ، وَأَدْنَى ذَلِكَ يُخْطِئُ أَعْمَالُكَ وَيَمُحِّقُ كُلُّ مَا يَرْعَى لَكَ .

لَا جَزَمَ أَنِّي قَدْ وَقَفْتُ بَيْنَ مَيْلٍ إِلَيْكَ وَمَيْلٍ عَنْكَ أَقْدَمُ رَجُلًا لَصْنَتِكَ وَالْآخَرَ آخَرَ عَنْ قَصْدِكَ وَأَبْسَطُ يَدًا لَاصْطِلَامِكَ وَاجْتِنَابًا ، وَأَنْتَ ثَانِيَةٌ لَاسْتِقْبَانِكَ وَاسْتِصْلَاحِكَ وَأَتَوَقَّفُ عَنْ امْتِثَالٍ ^(٨) بَعْضِ الْمَأْمُورِ فِيكَ ضِنًا بِالنِّعْمَةِ عِنْدَكَ ، وَمُنَافَسَةً فِي الصَّنِيعَةِ ^(٩) لَدَيْكَ ، وَتَأْمِيلًا ^(١٠) لِفَيْئَتِكَ وَانْصِرَافًا ، وَرَجَاءً لِمَرَاجَعَتِكَ وَانْعِطَافًا ، فَقَدْ يَعْزِيبُ ^(١١) الْعَقْلُ ثُمَّ يَثُوبُ ، وَيَذْهَبُ الْحَزَمُ ثُمَّ يَعُودُ ، وَيَقْسُدُ الْعِزَمُ ثُمَّ يَصْلِحُ ، وَيَضَاعُ الْأَمْرُ ثُمَّ يَسْتَرْكُ ، وَيَسْكُرُ الْمَرْءُ ثُمَّ يَصْحُو ، وَيَكْدُرُ ^(١٢) الْمَاءُ ثُمَّ يَصْفُو وَكُلُّ ضَيْقَةٍ إِلَى رَخَاءٍ ^(١٣)

وَكُلُّ غَمْرَةٍ ^(١٤) فَإِلَى انْجِلَاءٍ كَمَا أَنَّكَ أَتَيْتَ مِنْ إِسَاعَتِكَ بِمَا لَمْ يَحْتَسِبْهُ أَوْلِيَاؤُكَ فَلَا بَدْعَ أَنْ تَلْتَمِئَ مِنْ إِحْسَانِكَ بِمَا لَا - يَرْتَقِبُهُ أَعْدَاؤُكَ ، وَكَمَا اسْتَمَرَّتْ بِكَ الْغَفْلَةُ حَتَّى رَكِبْتَ مَا رَكِبْتَ وَاخْتَرْتَ مَا اخْتَرْتَ فَلَا عَجَبَ أَنْ تَنْتَبِهُ انْتِبَاهَةً تَبْصُرُ فِيهَا قُبْحَ مَا صَنَعْتَ

(٦) الغلول: الخيانة في الغنمية ، ومنه قوله تعالى : " وما كان لنبى أن يغل "

(٧) الروضة الألف : التي لم ترع والكأس الألف التي لم يشرب منها والأمر

الألف : المستأنف الذي يسبق به قدر .

(٨) لا جزم : حقاً أولاً محالة ، وهذا هو الأصل في معنى الكلمة ثم تحولت

إلى معنى القسم .

(٩) الصنم : ضرب ضارب بمثله والمقصود هنا الشدة في المعاملة .

(١٠) اصطلمه : استأصله واجتاحه

(١١) امتثل الأمر : اطاعه ونفذه .

(١٢) الصنعة : المعروف والإحسان

(١٣) تأميراً لفئتك : أملاً في رجوعك إلى الطاعة والصرافك عما جنحت إليه

من عقوق وعصيان .

(١٤) الغمرة / : للتغطية بالماء ، والمراد هنا المرة من حدوث الشدائد والمحن والمصائب .

وسوء ما آثرت ، وسأقيم علي رسمي في الإبقاء والمماطلة ما
صلح وعلي الاستيناء ^(٨) والمطاوله ما أمكن طمعاً في إنباتك ...

تحليل وتعليق :

بدأ ابن العميد رسالته باللوم والتهديد موضحاً موقف ركن الدولة
بن بويه من بلكا بن ونداد ، فركن الدولة حائر يود تارة رعاية
الثائر والمحافظة عليه والعناية به بفضل حزماته عنده وخدماته
الجليلة لديه ثم يبلّس تارة أخرى فيري أن ينقض عليه ويحتل من
صلاته السابقة بعد أن حدث ما حدث من خيانة ومعصية وخروج
وتمرد ، وموقف كهذا يحمل نفسه علي الانتقام منه وأخذة بالشدة
وعقوبته الصارمة جزاء ما أحدث من أمور ، ثم سرعان ما
يتراجع عن التفكير في النيل منه أملاً في رجوعه ورجاء في
صوابه ، ولا غرابة فالعقل قد يغيب ثم يرجع والماء قد يكدر ثم
يصفو والضيق يعقبه رخاء وكل شدة إلي انجلاء وكان لهذا
التردد توافق فصلها ابن العميد فذكر أنه حائر بين العفو عنه
والنيل منه وكلمة فكر في الانتقام منه فكر أيضاً في الإحسان إليه
، وتطول الحيرة بين شناعة الجرم الذي ارتكبه بلكا ، والذي
يستحق عليه أكبر العقاب ، ولكن الأمير يتصنع الأناة اعذاراً
لنفسه والتماساً لرشد صاحبه

وأفكار الرسالة مرتبة غني صاحبها بتسلسلها الفكري واتساقها
في وحدة موضوعية حيث خاطب فيها العقل والجدان معا
واستوفى معانيه من طرق متعددة : فابن العميد أول كاتب قد فتح
باب الولوع بالرسائل البديعية متوخياً فيها السجع القصير الفقرات
ومقتبساً من القرآن الكريم والأحاديث النبوية مشيراً إلي بعض
الحوادث التاريخية مؤثراً بعض المحسنات البديعية كالجناس
والمطابقة والأمثال الثائرة ، ورسالته التي نحن بصددنا من أجود

(٨) الاستيناء : التمهّل والانتظار .

ما كتبه ، حيث اتسمت برقة الأسلوب وانتقاء العبارة وتسلسل
الفكرة وسلامتها من الغرابة أو التعقيد .

وقد دخل ابن العميد في موضوع رسالته دون تمهيد أو تقديم
وذلك لأن الموقف لا يحتمل المقدمات بقدر ما يحتاج إلى اللوم ،
وقد ضم إلي وعيده وتهديده عبارات النصيح والإرشاد ، وأفكاره
جاءت موافقة لحالته النفسية التي تقتضي أن يفرغ ما بداخله من
شحنات الغضب ، والثورة فإذا ما هدأت ثورته وضعفت جذوته
استخدم الحكمة التي تشف عن تجاربه في الحياة .

وهو يستخدم الترادف اللفظي حتي تستقر المعاني في النفس ،
وقد ملك في هذا طريق المنطقة حين يعزل ويرتب المسببات
على أسبابها كقوله : " فإنك تدل بسابق حرمة ، وتمن بمسالف
خدمة " كما عني ابن العميد بالصنعة اللفظية التي تتجلى واضحة
بين الكلمات (طمع ويأس ، وإقبال وإعراض ويعزب ويثوب)
بل وفيها فوق ذلك من الأساليب ما يصلح أن يكون أمثالا سامرة
كقوله : (وكل ضيقة فإلي رخاء وكل غمرة فإلي انجلاء) فهو
طبايق يوضح المعاني ويقويه فضلا عن أنه محسن بلاغي أجاد
ابن العميد استخدامه . وابن العميد حريص على دقة الألفاظ
حريص على بسط المعاني مهتم بتوضيحه ، فهو في وعيده
ولومه يستخدم ما يناسب من الألفاظ توجي بالخوف والرهبة وتلائم
للجو النفسي كقوله : (الخيانة الغلول ، المعصية ، يحبط ، يسحق ،
الاجتياح) وهي كلمات كفيلة بجلب القلق والتفكير .

بينما يستخدم في مقام الإرشاد والنصح من الألفاظ ما يوحى
بالرفق واللين كقوله : (إصانك ، إنباتك ، يرشدك)

وقد استخدم ابن العميد السجع المقبول المستساغ كقوله : إقبال
عليك إعراض عنك ، بين طمع فلك ويأس عليك أيسرهما يوجب
رعاية ، ويقضي محافظة وعناية ، وهو يستعين كذلك بالجناس

ولاسيما الناقص منه كقوله : الحزم والعزم ، يصححو ويصفو
إعذار وإذار ، وهو بذلك يكسب عباراته رونقا وبهاء

وهو يستعين بالحكمة ، ويبرزها في دقة كقوله فقد يعزب العقل
ثم يزوب ويغرب اللب ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ويفسد
العزم ثم يصلح .

وفي الرسالة حرص شديد علي الإطناب لتأكيد المعنى وتقريره
وليثار الترادف في الألفاظ والتركييب لتحقيق الإيقاع الموسيقي
وهي موسيقى داخلية بارعة ناشئة من الطباق والجناس والسجع
والأزدواج والتوافق الصوتي بين الألفاظ وهو في كل ذلك لا
يتكلف بل ألقت إليه هذه الأصباغ اللديعية والألوان الموسيقية
بمقاليدها فنراه يطوعها لمعناه دون أن تطوع هي معناه لها

وقد ظهرت في الرسالة شخصية ابن العميد ، كما ظهرت ثقافته
التي تجمع بين العربية والفارسية ، ويتلمذته علي علماء عصره
ولابن العميد طريقة خاصة عرفت باسمه في العراق وخراسان
وما جاورها كما قلده في طريقته بعض الكتاب كالصاحب بن
عباد والخوارزمي وغيرهما

أبو عثمان الجاحظ

هو أبو عثمان عمر بن بحر الملقب بالجاحظ - قيل لجحوظ
عينيه المتوفي سنة ٢٥٥هـ وقد عرف بباعه الطويل في الكتابة
لهذا العصر وكان له طريقة خاصة أتبعها كثيرون وأطلقوا عليها
المدرسة الجاحظية فهو - بحق - بعد ثمرة الجهود العقلية
الخصبة التي نهض بها المعتزلة من حيث المنطق وقوة الاستدلال
والقدرة علي توليد المعاني ، وكان يتخلل كتاباته كثير من
الفكاهات والنوادر ليدفع بها الملل عن القارئ .

وقد خلف وراءه تراثا ضخما تزو به المكتبة العربية والمتمثل
في العديد من الكتب والرسائل والمقالات وأهمها :

١- البيان والتبيين : في البيان والبلاغة والخطابة والشعر والأسجاع ونماذج من الوصايا والرسائل وضروب من النوادر والمختارات البلاغية ، ويقع في أربعة أجزاء

٢-كتاب الحيوان : وبعد موسوعة للثقافة العربية في العصر العباسي إذ ليس مقصوراً على الحيوان فحسب بل يحوي طائفة من المسائل الفلسفية ، والمعارف الطبيعية ، وتأثير البيئة في الإنسان والحيوان والنبات ، كما يعرض للتاريخ والطب والأمراض ، وللعرب وأحوالهم وعاداتهم وعلومهم ومزاجهم ، وفيه صفة مختارة من الشعر العربي والنوادر والفكاهات ..

٣-كتاب البرصان والعرجان والعميان والحوالان ، وفيه يعرض لهذه العيوب الخلقية وماورد فيها من آثار شعرية كما عرض لأعلام العرب ممن فيهم هذه العيوب وأعلام الملوك والرؤساء والأدباء والشعراء ممن كانوا على هذه الحال كذلك !!

وهذا النموذج من كتابه : "البيان والتبيين" يتحدث فيه عن البيان فيقول :^(١)

قال بعض جهابذة^(٢) الألفاظ ، ونقاد المعاني :
" المعاني القائمة في صدور الناس ، المتصورة في أذهانهم ، والمتخلجة^(٣) في نفوسهم والمثقلة بخواطرهم ، والحائثة عن فكرهم مستورة خفية ، وبعيدة وحشية ، ومحجوبة مكنونة^(٤) وموجودة في معنى معدومة ، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ، ولا حاجة أخيه وخليطه^(٥) ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره ، وعلي مالا يبلغه من حاجات نفسه إلا يغيره وإنما

(١) البيان والتبيين ج/١ تحقيق عبد السلام هارون ط/دار الجيل بيروت/٧٥

(٢) الجهابذة : جمع جهبذ وهو الخير بعلمه أو فقه

(٣) القائمة : الموجودة في صدورهم والمتخلجة : التي تدور وتحث نفوسهم .

(٤) وحشية : غريبة ، أي أنها بعيدة غير مألفة .

(٥) الخليط : المخالط كالجلس المجالس في اللفظ والمعنى وهو واحد وجمع وقد يجمع على خلطاء .

يُحيي تلك المعاني ذكرهم لها وإخبارهم عنها ، واستعمالهم إيها
وهذه الخصال هي التي تقرّبها من الفهم ، وتُجلبها للعقل ،
وتجعل الخفي منها ظاهراً ، والغائب شاهداً ، والبعيد قريباً وهي
التي تختص الملتبس ، وتحل المنعقد وتجعل المهمل مقيداً والمقيد
مطلقاً والمجهول معروفاً ، والوحش مألوفاً والعقل^(١) موسوماً
والموسوم ، معلوماً ، وعلى قدر وضوح الدلالة وضوب الإشارة ،
وحسن الاختصار ودقة المدخل ، يكون إظهار المعنى وكلما
كانت الدلالة أوضح وأفصح ، وكانت الإشارة أبين وأتور ، كان
انفع وأنجع^(٢) والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان
الذي سمعت الله عز وجل يمنحه ويدعو إليه ، ويحث عليه ،
وبذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت أصناف
العجم ! والبيان : اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ،
وهتك الحجاب^(٣) دون الضمير حتى يفطن السامع إلى حقيقته
ويهجم على محموله كأنما ما كان ذلك البيان ، ومن أي جنس
كان ذلك الدليل لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل
والسامع إنما هو الفهم والإفهام ، فبأي شيء بلغت الإفهام ،
وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع .

والصاحب بن عباد^(٤) :

(١) العقل : ما ليست له علامة تميزه ، والموسوم : الذي له سمة أي أثر
وعلمة ، والمعنى : أن تصبح المعاني الغامضة واضحة .

(٢) أنجع أكثر فائدة ، وأعظم أثراً .

(٣) القناع : الغطاء ، وهتك الحجاب دون الضمير : أزال الحجاب عن الضمير
والمعنى : بيّنه لك وكشفه .

(٤) هو الوزير إسماعيل بن عباد أبو القاسم ، الملقب بكافي الكفاة ، ولد سنة
٣٢٦ هـ بطلقان وهي ولاية من قزوین وأبهر وتوفي سنة ٣٨٥ هـ فارسي
الأصل ، كان أنبياً منشئاً وعالماً في اللغة وغيرها ، أخذ عن ابن فارس
وابن العميد وهو أول من لقب بالصاحب من الوزراء لأنه كان يصحب ابن
العميد ، ثم أطلق عليه هذا اللقب لما ولي الوزارة ، وبقي علماً عليه وسمي

من رسائل العهود قوله: (١)

" هذا ما عهد مؤيد الدولة أبو منصور بن ركن الدولة أبي علي مولي أمير المؤمنين ، إلي عبد الجبار بن أحمد حين ولاء قضاء القضاة بالري وقزوین ، وسهرورد وقم وشاوة ، وما يجري معها ويتصل بها ، علما بما لديه من علم يبتدي بأضوائه ، وورع يستسقي بأنوائه (٢) ، وكفاية يكتفها (٣) الحلم والحجى (٤) ، وأمانة يبعثها للنسك والتقى (٥) ، وموقع في عليّة أهل الدين ترمقه (٦) "

سبه كل وزير بعده وزير لمؤيد الدولة ، وفخر الدولة ، ولم تكن مكانته لأبيه فحسب بل لأنه كذلك كان كاتباً ووزيراً وقائداً ومديراً لشئون الدولة ، وكان مجلسه قبلة الأدباء والشعراء بمنحونه أو يتناقشون أو يتعارضون . وكان شاعراً مترسلاً مع فتون شديد بالسجع والبدیع وتعتبر رسالته وثائق تاريخية مهمة في (الدولة البويهية ، في العراق وخراسان وفارس وكان أكثر وزرائها من الأدباء المشهورين كابن العميد والصاحب بن عباد هذا ، ومن أشهر ملوكها عضد الدولة ابن بويه الذي ألف له أبو اسحاق الصابي كتاب " التاجي " في أخبار بني بويه وألف له أبو علي الفارسي كتاب " الإيضاح " في النحو) وقيمة الوثائق الأدبية أعظم من قيمتها التاريخية لأنها تناولت موضوعات يشق تطويعها للأساليب الأدبية مثل مسقي الأرض (راجع النثر الفني في القرن الرابع ج/٢ ص ٢٤٣ د. زكي مبارك . (١) راجع: من عيون الأدب د/ محمد كامل الفقي ص ١٤٨ - ٥٠ ووجواهر الأدب للهاشمي ص ٤٢٤)

(٢) الأنواء : جمع نوء ، وهو سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر وطلوع الشمس ، وطلوع رقيقه من المشرق يقابله من ساعته في كل ثلاثة عشر يوماً ما خلا الجهة فإن لها أربعة عشر يوماً وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والبزء إلي الساقط منها .

(٣) يكتفها : يحوطها ، ويصونها ؛ والفعل من باب نصر .

(٤) الحجى : العقل .

(٥) للنسك مثله : العبادة ، وكل حق لله تعالى ، ونسك ككرم ونصر وتنسك (٦) ترمقه: تنظر إليه ، وبابه : نصر .

لنواظر ، ومكان من صفوة المسلمين تعقده الخناصر والله ولي الإرشاد ، والمعونة علي حسن الارتداد^(٧)

أمره بتقوى الله ومراقبته وتخوف سطوة ومعاقبته ، إن التقوى زمام الأفعال الصالحة ، وإمام الأعمال الرابحة من لجأ إليها أتاه التوفيق في مصارفه وواتاه السداد في مواقفه ، ومن مال عنها تحاماه^(٨) الرشاد في أبحاثه ، وتخطاه الصواب في أرائه ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا .

وأمره بأن يجعل القرآن قبله مساعيه ، ووجهة مطالبه ومباغيه فينصب إليه تاليا ، وينتصب له قارنا ، ويخلو به متديرا ، ويوظب عليه متبصرا ، فهو حادي الحكيم^(٩) ، وهادي الأمم والجللاء^(١٠) عند الاشتباه والاستعجاب^(١١) والضياء في مشكلات الاعضال والاستبهام . من فرغ إلي زخائره أثرى من المرائد واستثري^(١٢) ومن عدل عن بصائره أقوى من المحامد وأعسر^(١٣) فلو أنزل علي الجبال لخشعت أو علي الأطوار لتصدعت ما قرط فيه ، ولا تجوز في أوامره ونواهيه .



(٧) الارتداد : المطلب والذهاب والمجيء ، ومثله الزود والرياد .

(٨) واتاه واتاء إيتاء أعطاه . وتحاماه : توقاه واجتنبه .

(٩) يسوق إليها .

(١٠) الجللاء بالفتح والمد : الأمر الجلي ، نقول : جلا لي الخير بجلو جلاء أي .

وضيح . والجللاء بالكسر مصدر جلي السيف بجلوه أي صقلته .

(١١) الاستعجاب : الاستبهام والخفاء .

(١٢) أثرى : كثرت أمواله ، واستظهر به : استعان .

(١٣) وأعسر أفقر . البصيرة : الحاجة ، وأقوت الدار : خلت .

ثانياً : فنُ المقامات :

المقامة :

المقامة نوع أدبي اشتمل علي أول بذور النشر القصصي إلا أنه لم تتوفر له الشروط الفنية الكاملة ، وهي في الأصل: اسم مكان من قام ثم أطلقت وأريد بها الكلام الذي يُملأ به مجلس من المجالس علي لسان بطل بما يشبه القصة .

أسلوبها: هي عبارات عربية فصيحة مملوءة بالتعشُّل أو للتكلف والفاظها غريبة تقوم علي الصنعة البديعية من سجع وجناس وطباق وغير ذلك . وكثيراً ما تمتزج بالفكاهة والسخرية الهادفة وربما خالطها الأسلوب الوعظي .

ومنتشوها : أن الفقر واليؤس كانا شائعين بين الناس وكان كثير من الأدباء يعيشون في شظف من العيش لا يجدون من يعطف عليهم أو يعينهم علي أعباء الحياة فكتبت المقامات بدافع من اليؤس والفاقة حينئذ لتصوير حياة هؤلاء البائسين من الأدباء - بطريق غير مباشر

وهدفها: ١- النقد اللاذع لأوضاع المجتمع السياسية والاجتماعية بطريق غير مباشر .

٢- ربما اشتملت علي الموعظة ، وكانت هدفاً لها .

٣- وربما اشتملت علي الفكاهة والسخرية وكانت هدفاً لها .

٤- كانت مجالاً لتعليم غريب الفاظ اللغة العربية ومجالاً للتنافس في تميم أو تحبير الفاظ اللغة علي نمط خاص يميزها عن بقية أنواع النشر العربي ، وهي تتضمن ألواناً من الثقافة والاقتباس من

بعض الأنواع الأخرى كالتعبير بعض مقاطع الشعر وبعض
الطرائف اللغوية والاجتماعية ..

أهم رجالاتها : وكان من أشهر هؤلاء الكتاب أبو بكر بن دريد
ت سنة ٣٢١هـ وهو أول من عرفت له مقامات ، ولحمد بن
فارس صاحب كتاب المجلدات سنة ٣٩٠هـ وبديع الزمان
الهمداني ت سنة ٣٩٨هـ وجار الله الزمخشري ت سنة ٥٣٧هـ

وقد اخترنا نموذجاً لهذا الفن وهو **(لبديع الزمان الهمداني)**

تعريف بالكتاب :

نشأ بهمدان من بلاد فارس لشرف أبوه علي تعليمه في سن
مبكرة ، وكان من شيوخه الذين نهل من موردهم العذب : أحمد
بن فارس صاحب كتاب المجلدات وعيسى بن هشام الذي جعله
راويًا لمقاماته ، ولعظم فضل بديع الزمان : كثرت حاسدوه حتى
قيل إنه مات مسموماً وكانت وفاته في الحادي عشر من جمادى
الأولى سنة ٣٩٨هـ ، وتبلغ مقاماته أربعمائة ، وإن لم يعثر إلا
علي خمسين منها فقط وهي عبارة عن حكايات أو قصص
انتزعت من بديع الزمان من الحوادث التي جرت له وشاهدها في
رحلاته الطويلة في بلاد خراسان ^(١) ومن مقاماته :

المقامة البغدادية :

حدثنا عيسى بن هشام قال : ^(٢)

اشتبهت الأزد ^(٣) وأنا ببغداد وليس معي عقد علي نقد ^(٤)

^(١) راجع للنثر الفني في القرن الرابع / د/ زكي مبارك ج/ ١ ص ١٦١ وما
بعدها ط بيروت سنة ١٩٧٥م .

^(٢) مقامات بديع الزمان الهمداني ط/ ٤ ص/ ٥٩ شرح وتقديم الشيخ محمد
صبيح المطبعة الكاثوليكية بيروت لبنان .

^(٣) الأزد : نوع من النمر .

^(٤) كناية عن النعم أي معدم لا مال عندي .

فخرجت أنتهز محالة حتي أحلني ^(١) الكرخ ، فإذا أنا بسوادي يسوق بالجهد حمارة ^(٢) يُطرقُ بالعقد إزاره فقلت : ظفرتنا والله بصيد ، وحياك الله أيا زيد من أين أقبلت ؟ وأين نزلت ؟ ومتى وافيت ؟ وهلم إلي البيت ^(٣) فقال السوادي : لست بأبي زيد ، ولكنني أبو عبيد ، نعم لعن الله الشيطان ، وأبعد النسيان ، لئسانك طول العهد ، واتصال البعد ^(٤) فكيف حال أهلك ؟ أشاب كعهدي ، أم شاب بعدي ؟ فقال : قد نبت الربيع على دمنته ^(٥) وأرجو أن يصيره الله إلي جنته ، فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ومددت يد البدار إلي الصدر ، أريد تمزيقه ^(٦) فقبض السوادي علي صدرني بجمعه ^(٧) وقال : نشدتك الله لا مزقه ، فقلت هلم إلي البيت نصب غداة أو إلي السوق تشتت شواء ، والسوق أقرب ،

(١) للمحال : جمع محلة والمراد الأماكن التي يوجد بها الأزد ، وانتهاز : المراد منه ألتمس وأقصي ، ولكنه جعلها كالغنيمة التي يسارع لانتهازها التلق والكرخ : محل بغداد ، والضمير في " أحلني " راجع إلي الأزد ، من باب اسناد الفعل إلي السبب .
(٢) السواد : ريف العراق وقراء ، والنسبة إليه سودي ، والمراد رجل من أهل السواد وهم - في أغلب الأحوال - أعرار لا يفتنون لدقيق الحيل .
(٣) أراد بالصيد ذلك الرجل ثم أقبل عليه يحادثه ويكالمه يتدخل معه لينال منه ما أراد .
(٤) أراد بالصيد ذلك الرجل ثم أقبل عليه يحادثه ويكالمه يتدخل معه لينال منه ما أراد .
(٥) المراد بالدمنة : القبر والربيع هنا : للنبات ، وكني بذلك عن موته منذ عهد طويل .
(٦) يد البدار : المبادرة والسرعة ، والصدار : ثوب يلبس مما يلي الجسد ، والمعنى : أنه حين سمع بموت أبيه بادر إلي ثوبه ليمزقه ، إظهار الجزع ، وتأكيذا للحيلة بأنه صديق أبيه .
(٧) جمع اليد يضم الجيم : قبضتها ، والمعنى : أنه أنه قبض بكل يده عليه لينتعه من تمزيق صدره .

وطعامه لطيب ، فاستغفرته حمة القرم ، و عطفته عاطفة التلقم^(١) وطمع ، ولم يعلم أنه وقع ! ثم أتينا شواءً ينقاطر شبواؤه جرقاً وتتسائل جوداباته مرقاً^(٢) فقلت : أفرز لأبي زيد من هذا الشواء ثم زن له من تلك الحلواء ، واختر له من تلك الأطباق ، وانضد عليها الرقاق ، ورش عليه شينا من ماء السماق^(٣) ليأكله أبو زيد هنياً ، فأنحنى الشواء بساطوره^(٤) علي زبدة شوره فجعلها كالكلح سحقاً ، وكالطحن دقاً ثم جلس وجلس ، ولا ينم ولا ينست ، حتي استوفينا ، وقلت لصاحب الحلوى : زن لأبي زيد من اللوزينج رطلين فهو أجرى في الحلوى ، وأمضي في العروق ، وليكن ليالي العمر يومي النشر^(٥) رقيق القشر كثيف الحشو ، لؤلؤي الدهن كوكبي اللون ، يذوب كالصمغ قبل المصغ ، ليأكله أب زيد هنياً ، قال : فوزنه ثم قعد وقعدت ، وجرد وجردت^(٦) حتي استوفينا ثم قلت :
يا أبا زيد ما أحوجنا إلي ماء يشمتع^(٧)

- (١) استغفرته : استهوته فحركته بشدة ، والحمة في الأصل : إبرة العقرب التي تلسع بها ، ثم حملت علي الشدة مطلقاً والقرم : الشهوة البالغة لأكل اللحم والتلقم : السرعة في الأكل ، والمعني : أن شدة حبه للطعام وعظيم شوقه لسرع به إلي موافقتي .
(٢) الجودابة : رقيق يخبز وفوقه طائر أو قطعة لحم .
(٣) السماق : حب صغير حامض يحد من المشبهات .
(٤) الساطور : سكين عظيمة ، وبهذا الاسم تعرف عند العامة .
(٥) اللوزينج : نوع من الحلوى يتخذ من الخبز ويسقى بدهن اللوز ، ويحشى باليقل ، ومعني كونه ليالي العمر أنه صنع ليلاً ، ومعني كونه نهاري النشر : أنه قد ظهر نهاري ليكون بعد مضي هذا الوقت قد شرب دهنه وصله .
(٦) جرد : أي شمر عن ساعده ليسرع في الأكل .
(٧) يشمتع : يخلط ، ومن ثم قيل للخمر : مشمتعة ، لأنها مخلوطة بالماء ، قال عمرو بن كلثوم :
مشمتعة كأن الخص فيها . . . إذا ما الماء خالطها منخينا
والخص : الورس وجمعه أحصاص وخصوص يقال : هو الزعفران ويقمع : يقهر ، والضارة شدة الحر .

ويفتأ هذه اللقمة الحارة^(١) اجلس يا أيا زيد حتي نأتيك بسقواء يأتيتك
بشربة ماء، ثم خرجت وجلست بحيث بحيث أراه ولا يراني أنظر
ما يصنع ، فلما لبثت عليه قام السوادى إلي حمارة ، فاعتلق
الشوواء بإزاره^(٢) وقال: أين ثمن ما أكلت ؟ فقال أبو زيد : أكلته
ضيفاً^(٣) فلكنه لكمة ، وثنى عليه بلطمة ثم قال الشوواء : هاك ،
ومتى دعوناك ؟^(٤) زن يا أبا القحّة^(٥) عشرين درهما ، فجعل
السوادى يبكي ، ويحل عقده بأسنانه ، ويقول: كم قلت لذلك
القريد: ^(٦) لنا أبو عبيد وهو يقول : أنت أبو زيد ، فأشدت :
اعمل لرزقك كل حيلة • لا تقعدن بذل حاله^(٧)
وانهض بكل عزيمة • فالمرء يعجز لا محالة^(٨)

- (١) يفتأ : بكسر ويخفف، والمعنى : أننا في حاجة إلى الماء المخلوط بالنتح
(٢) اعتلق : تعلق به أي أن الشوواء لم يتركه يفرج ، بل أمسك به ليأخذ حقه
عتلق : تعلق به أي أن الشوواء لم يتركه يفرج ، بل أمسك به ليأخذ حقه
(٣) أكلته ضيفاً : أي كنت مدعوا لتناول هذا الطعام ، فلا تطالبني بتمنسه ،
لأن الضيف لا يدفع ثمن ما يأكل .
(٤) هالك اسم فعل أمر بمعنى: خذ : أي: خذ من الضرب ما أنت خالق به
(٥) القحّة : الوقاحة وسوء الأدب ، وزن عشرين : أعط وزن عشرين درهما
(٦) القريرد: المراد كم قلت لهذا الخائن المحتال لكنه بصر علي أني أبو زيد!
(ولعلنا نعجب من اختيار الكاتب لهذا الاسم إذا علمنا أن الحمارة يكنى عنه
بابي زيد ! راجع الإبانة في اللغة العربية الشريفة للعوثي تحقيق الدكتور/
محمد حامد شريف ود /محمد مكي ج / ١ ص ١/٢٩ ط١/ سلطنة عمان.)
(٧) المعنى : لا تكن خائر القوى فتقعد عن طلب الرزق ، وأنت تعلم أنه لا
يأتيتك حتى تعمل ولا يقبل عليك إلا إذا سعت له فلا تدخر وسعاً في
تحصيله.
(٨) أي أنه لا بد أن يأتي علي المرء يوم يعجز فيه علي القيام بحاجته ،
فانتهر فرصة شبابك وقوتك واعتصم من فتوتك وحدثة سنك ما يساعدك علي
القيام بعظائم الأمور وجلالها .

المقامة المصنوية :

هي مقالة فكاهية من أندر الفكاهات التي كتبها بديع الزمان ، وهو يتحدث على لسان عيسى بن هشام ونسبها لرجل يقال له أبو الفتح الإسكندري، قال: ^(١) دعاني بعض التجار إلى مضيرة وأنا ببغداد ، ولزمني ملازمة الغريم ، والكلب لأصحاب الرقيم إلي أن أجبتة إليها وقمتا ، فجعل طول الطريق يثني علي زوجته ويفديها بمهجته، ويصف حنقها في صنعتها ، وتأنقها في طبخها ويقول: يا مولاي لو رأيتها والخرقة في استها وهي تدور في الدور من الثور إلى القدور ، تنفث بفيها النار ، وتنفث بيديها الأزار ، ولو رأيت الدخان قد غبر في ذلك الوجه الجميل ، وأثر في ذلك الخد الصقيل ، لرأيت منظرًا تحار فيه العيون ، وأنا أعشقها لأنها تعشقتني ، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليته وأن يسعد بظعنائه ، ولا سيما إذا كانت من طينته. وهي أينة عمي لحى ن طينتها من طينتي ومدينتها مدينتي ، وعمومتها عمومتي وأرومتها أرومتي ، لكنها أوسع مني خلقا ، وأحسن خلقا ... صدعني بصفات زوجته ، حتى انتهينا إلى محلته ثم قال: يا مولاي، تري هذه المحلة ؟ هي أشرف محال بغداد ، يتنافس الأخيار في نزولها ، ويتغابر الكبار علي حلولها ، ثم لا يسكنها غير التجار ، وإنما المرء بالجار ، وداري في السطة ^(٢) من قلايتها .. كم تقدر يا مولاي أئفك علي كل دار منها ؟؟

قله تخمينًا ، إن لم تعرفه يقينًا !

أبو الفتح : الكثير !

التاجر : ياسبحان الله ما أكبر هذا الغلط ! نقول الكثير فقط ؟

(١) راجع المقامة كاملة في/مقامات بديع الزمان الهمداني ط/٤ ص/١٠٤

شرح وتقديم الشيخ محمد عبده ط/ بيروت لبنان .

(٢) السطة : الوسطة وهي كلمة يكثر ورودها في كلام بديع الزمان .

وظل الرجل يتحدث عن داره ، وما أنفق عليها إلي أن ضجر أبو الفتح وهو ينتظر طعام المضيرة ، ثم استأنف التاجر الحديث عن الطعام فقال :

ونعود إلي حديث المضيرة وقت الظهيرة : يا غلام : الطست والماء أبو الفتح :- في سره - الله أكبر ! ربما قرب الفرج ، وسهل المخرج (ويتقدم الغلام بالماء)

التاجر : نرى هذا الغلام ؟ إنه رومي الأصل ، عراقي النشأة تقدم يا غلام واحسر عن رأسك وشمر عن ساقلك وافض عن زراعك

وافتر عن أسنانك ، وأقبل وأدير .^١ ويفعل الغلام ذلك !!!
التاجر : بالله من أشره ؟

أبو الفتح :
التاجر : أشره والله أبو العباسي ، من النحاس ، ضغ الطست وهات الإبريق (يضع الغلام الإبريق) فيأخذه التاجر فيقلبه ، ويدير فيه النظر ، ثم ينقره ويقول :

التاجر : انظر إلي هذا الشبه كأنه جذورة الذهب ، أو قطع الذهب شبه^(١) الشام وصنع العراق ، ليس من خلقان الأغلاق ، وقد عرف دور الملوك تأمل حسنه وسلني متى أشرته ؟

أبو الفتح : ... ؟
التاجر : أشرته والله عام المجاعة ، وانخرته لهذه الساعة ، يا غلام الإبريق (يقدم الغلام الإبريق)

فيأخذه التاجر ويقلبه ثم يقول :
التاجر : لا يصلح هذا الإبريق إلا لهذا الطست ، ولا يصلح هذا الطست إلا مع هذا الدست ، ولا يصلح هذا الدست إلا في هذا البيت . لا يجمع هذا البيت إلا مع هذا الضيف ، أرسل الماء يا غلام ، فقد حان وقت الطعام (ويصب الغلام الماء) فيتأمله التاجر ويقول :

(١) الشبه بالتحريك : النحاس الأصفر .

التاجر : ترى هذا الماء ما أصفاه ! هو أزرق كعين السُّنُور ، وصافٍ كضبيب البلور ، استقي من الفرات ، واستعمل بعد البيات ، فجاء كلسان الشمعة في صفاة الدمعة ، وليس الشأن في السقاء ، إنما الشأن في الإناء ، لا بذلك علي نظافة أسنانه أصدق من نظافة شرابه ، وهذا المندبل ؟ سلني عن قصته ، فهو نسيج جرجان ، وعمل أرجان وقع إلي فاشتريته ، فاتخذت بعضه امرأتي سراويلًا ، واتخذت بعضه مندبلًا ، دخل في سراويلها عشرون ذراعًا وانتزعَت بيدها هذا القدر انتزاعًا ، وأسلمته إلي المطرُز ، حتي صنعه كما تراه ، وطرَّزه ، ثم رددته من السوق وخزنته في الصندوق ، وانخرته للظروف من الأضياف!

ياغلام ! الخوان ، فقد طال الزمان ! والقصاع فقد طال المجاع والطعام فقد كثر الكلام (ويأتي الغلام بالخوان) فيقلبه التاجر وينقره بينانه ويعجمه بأسنانه "م يقول :

التاجر : عمر الله بغداد ، فما أجود متاعها ! ، وأظرف صناعاتها ، تأمل بالله هذا الخوان وانظر إلي عرض متبته ، وخفة وزنه ، وصلابة عوده ، وحسن شكله .

أبو الفتح : - وقد ضساق صدره - هذا الشكل ، فمتي الأكل ؟؟

التاجر : عجل ياغلام - ثم يعود للحديث عن الخوان - فيقول :

التاجر : لكن الخوان قوائمه منه !

أبو الفتح : - وقد جاشت نفسه -

بقي الخبز والآتة ، والخبز وصفاته ، والحنطة أين لشتريت أصلاً ، وكيف اكثري لها حملاً ، وفي أي رحي طحن وإجادة عجن ، وفي أي ثُور^(١) سُجِر وخيَّاز استُوجِر ؟

ويقي الحطب ، من أين احتطب ، ومتي جُلب وكيف صنّف ، حتي جفف وحُبِس جتي يبس ؟

(١) الثور : الذي يخبز فيه وهو نوع من الكواطين ، وسُجِر : أي حُميت نارُه

وبقي الخباز ووصفه ، والتلميذ ونعته ، والدقيق ومدحه ،
والخمير وشرحه والملح وملاحته ، وبقيت السنكر جأت (١) ممن
أخذها ، وكيف انتقدتها ، ومن استعملها ومن عملها .. ؟
والخل كيف انتقى عنه أو اشترى رطبه وكيف صهرجت (٢)
معصرته ، واستخلص لبه ، وكيف قُير خيه .. ؟ (٣)
وكم يساوي ذلك ؟ (٤) وبقي البقل كيف احتل له حتى قطف ، وفي
أي ميلة رصف وكيف تؤنق حتى نظف ، وبقيت المضيرة كيف
اشترى لحمها ونصبت قدرها وأجبت نارها ودقت أوزارها حتى
أجيد طبخها وعقد مرقها ، وهذا خطب بطم (٥) وأمر لا يتم

أبو الفتح : وقد هم بالقيام

التاجر : أين تريد ؟؟

أبو الفتح : حاجة أقضيها !

التاجر : يامولاي ! تريد كنيفا يزري (٦) بريعي الأمير ، وخريفي
الوزير قد جُصص أعلاه وصهرج أسفله وسطح سقفه وفرشت
بالمرر أرضه يزل عن حائطه الذر فلا يثقل ، ويمشي على

(١) السكرجات : جمع سكرجة : -ضم السين والكاف والراء والتشديد- هي
إناء صغير يركل فيه الشيء القليل من الأدم وهي فارسية .
(٢) الصهاريج : هي كالحياض يجتمع فيها الماء وصهرج الحوض أي طلاه
(٣) القير والقار صند يذاب فيستخرج منه القار وهو شيء أسود تغطي به
الإناء والسفن ليمنع الماء أن يدخل . والحب : الجرة الضخمة وأصله الخشب
وهي معربة وليست عربية قال ابن دريد : هو الذي يجعل فيه الماء (راجع
لسان العرب لابن منظور / قير ، حب)

(٤) ما عظم من الروايد والذن هو كهينة الخب إلا أن أطول مستوى
الصنعة ، وفي أسفله كهينة قونس البهضة والجمع الذنان ، وقيل الذن : أصفر
من الخب له غنم فلا يقعد إلا أن يحفر له ، قال ابن دريد : الذن عربي
فصيح ! ولشد :

وقابلها الريح في دنها * وصلى على دنها وارشم

وجمعه دنان : قال ابن بري : يقال للذن الإقتيز ، عربية . (اللسان/ دنن)

(٥) بطم : يعلو ويعظم .

(٦) الكنيف : الخلاء ، والمادة كلها تدور حول السر ، وبزري : المراد يتناسب

أرضه الذباب فيزلق عليه باب غير أنه من خليطي ساج وعاج
مزدوجين أحسن ازدواج يتمني الضيف أن يأكل منه !!
أبو الفتح : كل أنت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف في الحساب
[ويمضي أبو الفتح فيقول :]

وخرجت نحو الباب ، وأسرعت في الذهاب وجعلت أعود وهو
يتبعني ويصيح ، يا أبا الفتح ، المضيرة يا أبا الفتح ، وظن
الصبيان المضيرة لقباً ، فصاحوا صياحه ، فرميت أحدهم بحجر
من فرط الضجر ، فلقى رجل الحجر بعمامة ، فغاص في هامته
، فأخذت من النعال بما قدم وحدث ، ومن الصفع بما طاب
وخبت ، وحشرت إلي الحبس ، فأقمت عامين لأي ذلك النحس
فنذرت ألا أكل مضيرة ما عشت ! فهل أنا في هذا ، يا آل همدان
ظالم ؟ قال عيسى بن هشام :

فقبلنا عذره ، ونذرنا نذره ، وقلنا : قديماً جنت المضيرة ^(١) علي
خصائص النص :

١- الفكاهة النثرية قديمة بيد أنها ظهرت في القرن الرابع ظهوراً
واضحاً ملموساً وصارت فناً واضح الرسوم بقصد الكتاب إليه
قصداً ، ويتأفسون في تحبيره .

٢- والمقامة تتسم بانتقاء العبارات ، وتسلسل الأفكار فضلاً عن
خفة روح كاتبها ، وأسلوب النص مملوء بالصناعة اللفظية مع
اختيار الغريب من الألفاظ والتزام السجعة المتكلفة غالباً وإن أذى
ذلك إلي مخف العيارة إذ أن كاتبها قد حرص علي تزيين
عباراته بما استطاع إلي ذلك سبيلاً .

وموضع المقامة وإن كان يعالج - بطريق غير مباشر - بؤس
الكتاب حينئذ إلا أنه يمكن الحكم عليه بأنه ضئيل المغزى ،
والجدير بالذكر : أن خصائص هذه المقامة والتي قبلها تكاد تتفق
مع خصائص المقامة في هذا العصر الذي نحن بصددده .

(١) المضيرة : يفتح الميم وكسر الضاد ، مريفة تطبخ بالبن وأشباهه . وقيل
هي تطبخ يتخذ من اللبن الحامض ، وقيل المضيرة : أن تطبخ اللحم باللبن .

ثالثاً : الخطابة

تمهيد:

يمكن تعريف الخطابة بأنها : فن مخاطبة الجماهير للإقناع بها أو التأثير وهي فن قديم أستخدم في الإرشاد وفض الخصومات كما أستخدم في الحث علي الحروب أو السلام والخطابة إنما ترقى كلما استجدت دواعيها واستقرت الحياه الفكرية وفي ظلال الحرية التي تعيشها البلاد .

والخطابة أنواع : دينية وسياسية وقضائية واجتماعية وقد تكون علمية فيهدأ أسلوبها وتسمى : محاضرة بيد أنه بين الخطبة والمحاضرة عموم وخصوص فيالنسبة للسامعين في الخطبة فهم أعم وبالنسبة لأسلوب المحاضرة فهو أهدأ ويميل إلي العلمية أو العقلانية لا للعاطفة التي هي عماد الخطابة !

مقومات الخطبة الناجحة:

للخطبة ثلاثة عناصر : المقدمة والعرض والخاتمة ، علي غرار ما لشرنا إليه في المقال إلا أن خصائص أسلوب الخطابة يتميز بالنقاط الآتية :

١- قوة الخطبة ومصدرها لنفعال الخطيب بقوة عقيدته وبقينه بما يقول ، ويظهر ذلك في عباراته المحكمة وكلماته ذات الجرس المسمي المؤثر والذي يتفاوت بحسب المواقف والانفعال بها .

٢- التكرار المعنوي لتثبيت الأفكار في الأذهان ولكن لا بد من تغيير العبارات

٣- تنوع الأسلوب بين الخبر والإنشاء بأنواعه ، حتى لا يكون الإلقاء رتيباً ولتتمثل الانفعالات اللازمة للخطابة أو تمتلي بها نفس الخطيب .

٤- ويجب أن تكون العبارات مفهومة للسامعين خالية من الإغراب والتعقيد .

٥- السامعون هم المقياس الصحيح لمستوى الأسلوب ودرجة إجادته فإن كانوا من الخاصة كان الأسلوب رفيعاً سامياً وإن كانوا من العامة كان الأسلوب مبسطاً سهلاً .

٦- ويؤثر في الأسلوب الخطيب نفسه ، فيجب أن يكون جهير للصوت صافيه حسن الإلقاء مناسب الهيئة حسن الوقوف متزن الحركات خبيراً بنفسية السامعين قادراً علي الانتماج فيهم وعلي فهم ما يطرا عليهم أثناء الخطابة من فتور فيعالجه أو غضب يتلافاه ويحسن لتهاز القرص واختيار الأوقات جاداً مرة ومازحاً أخرى ليصل إلي مراده^(١)

وفي العصر^(٢) العباسي: لما فترت الأحزاب السياسية واستقرت الدول واشتد اختلاط العرب بالأعاجم وقد تولوا كثيراً من قيادة الجيوش وعمالة الولايات ضعفت الخطابة السياسية كما ضعفت الخطابة المحفلية لضعف قدرتهم عليها وبقيت الخطابة قاصرة علي خطب الجمعة والعيدين وخطب الزواج وقل فيها الارتجال أو عدم وحل محل الخطابة السياسية في الأمور السياسية نشر المنشورات وفي الدينية مجالس الوعظ والتدريس في المساجد والمدارس واشتهر في صدر الدولة العباسية: (داود بن علي بن عبد الله بن عباس) خطيب بني العباس وأحد مؤسسي دولتهم وأجد النابغين من إخوته - وكانوا اثنين وعشرين رجلاً - ولأه أبو العباس عقب بيعته للكوفة ثم ولأه إمارة الحج في هذه السنة وولاه معها ولاية الحجاز واليمن واليمامة ، فقتل من ظفر بهم من بني أمية سنة ١٣٢ هـ وهو أول موسم ملكه بنو العباس وخطبهم الخطبة الآتية فقال :

" شكرًا شكرًا - إنا والله ما خرجنا لنحفر فيكم نهراً ولا نثني فيكم قصراً ، أظنّ عدو الله أن لا نقدر عليه إن رُوحي له من .

(١) راجع نصوص ودراسات أدبية منشورات جامعة صنعاء للنكاترة/ أحمد كرايين ومحمد رحومة ومحمد سعيد إسبر ص ٣٣ ط/١٩٨٨ م .

(٢) راجع جواهر الألب للهاشمي ص ٤١٥ .

خطامه ، حتى عثر في فضل زمانه ؟ فالآن حيث أخذ القوس
باريها وعاد القوس إلى النزعة ، ورجع الملك في نصابه ، في
أهل بيت النبوة والرحمة ، والله لقد كنا نتوقع لكم ونحن في
فرشنا (أمن الأسود والأحمر لكم ذمة الله ، لكم ذمة رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، لكم ذمة العباس ، لا ورب هذه
البنية - وأوما بيده إلى الكعبة - لانهيئ منكم أحداً
ومن شعراء صدر الدولة العباسية أيضاً ^(١) :

" شبيب بن شيبه بن عبد الله المنقري التميمي " خطيب البصرة
، أمتاز بكرم خلق ونزاهة لسان ، كما أمتاز بخطبه القصيرة
البليغة ، وقد اتصل بأبي جعفر المنصور قبل خلافته ثم اتصل به
بعدها فجعله في حاشية ولي عهده المهدي . وبقي كذلك حتى ولي
المهدي الخلافة فصار من خيرة ستماره وجلسائه إلى أن مات في
خلافته سنة ١٦٥ هـ ، ومن خطبه القصار ما عزى به المهدي يوم
ماتت ابنته البانوقه وجزع عليها جزعاً شديداً فقال شبيب:
" أعطاك الله يا أمير المؤمنين علي ما رزقت أجراً . وأعقبك
صبراً ولا أجدد الله بلاءك بنقمه ولا نزع منك نعمه ، ثواب الله
خير لك منها ورحمة الله خير لها منك ، وأحق ما صُبر عليه
مألاً سبيل إلى رده . "

وفي العصر العباسي الثاني ضعفت الخطابة الدينية ^(٢) علي السنة
للخلفاء وإن ظلت مزدهرة في المساجد وفي خطب الجمعة
والعديد ، فقد أصبح من المعتاد ألا يخطب الخليفة يوم الجمعة
إلا ما كان من الخليفة المهدي الورع الذي ظل في الحكم نحو
عام ..

ويروى أن الخليفة المعتضد حاول أن يخطب في بعض الأعياد
فأرتج عليه ولم تُسمع خطبته ، ولم يخطب خليفة بعده في العصر

(١) للمرجع السابق ص ٤١٦-٤١٧

(٢) راجع العصر العباسي الثاني د. شوقي ضيف ط/دار المعارف القاهرة
ص ٥٢٦ وما بعدها .

سوى "الراضى" ولم تؤثر خطبته... إلا أن الخطابة الدينية قد نشطت نشاطاً عظيماً في المساجد فقد كانت تعقد حلقات للوعظ والقصاص ، وكان الناس يتحلقون من حولهم فيما يشبه احتفالات الأعياد وكان منهم الرسميون الذين تُعينهم الدولة للخطابة ، ومنهم غير الرسميين ، وهم الجمهور الأكبر .

مكة الوعاظ والمتصوفين :

وكان قصاص المساجد الوعاظ موضع رعاية الدولة منذ عصر بني أمية وظل ذلك بعدهم حتى لنجد بعض من يُسند إليهم القصص يسند إليهم القضاء ، وكان من كبار الوعاظ في هذا العصر: "أبو الحسن علي بن محمد" الواعظ المصري المتوفي سنة ٣٣٨ هـ وكان يحضر مجلس وعظه الرجال والنساء . ومن وعاظ هذا العصر أيضاً "يحيى بن معاذ السرازي" المتوفي عام ٢٥٨ هـ ويروى أنه جاء إلي شيراز فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس فأول ما بدأ به قوله :

مواظع الوعاظ لن تُقْبَلَا • حتى يعينها قلبه لو لا ! .
وانتهال عليه الناس بعد ذلك انهياراً . وكذلك كان من أكبر وعاظ هذا العصر : "أبو حمزة الصوفي" المتوفي سنة ٢٦٩ هـ وهو أول من تكلم على رؤوس المنابر ببغداد خالطاً مواظعه باصطلاحات الصوفية وأفكارهم من صفاء الذكر وجمع الهم والمحبة والعشق والأنس ، وكان هؤلاء الوعاظ يجذبون إليهم الناس بأكثر مما يجذبهم الوعاظ العاديون لقيام حياتهم على الزهد والتقشف ، ورفض كل متاع وتكونت حول هؤلاء الوعاظ من المتصوفة حكايات تصور جهادهم العنيف في قمع شهوات النفس ومن ذلك ما يحكى عن رويم بن أحمد المتوفي سنة ٣٠٣ هـ وكان زاهداً ورعاً أنه اجتاز في بغداد وقت الهجيرة ببعض الطرقات وهو عطشان فاستقى من دار ففتحت الباب صبيبة ومعهما كوز ماء فأخذه منها وشرب ، فاستدازت له قائلة: صوفي يشرب بالنهار !!

فما أفطر بعد ذلك اليوم قط (١) ..!

والمهم أن التصوف نشر بهذه الحكايات المتصلة باحتمال المتصوفة لأتقال الشطط وما اعتقده العامة فيما جرى علي أيديهم من الكرامات أدبا شعبيا قصصيا كان يدور بين الناس ومادة لنشر الموعظة بينهم في المساجد وغيرها .

ولعل خير ما يقص أخبار المتصوفة هو (كتاب أخبار الحلاج) وهو أخبار عنه بالسنة تلاميذه ، ومنهم : إبراهيم الحلواني وأحمد بن سعيد الأسبيجاني روى الأخير قال : سمعت الحلاج يقول : (٢)

" ألزم الله الكل الحديث لأن القدم له . والذي بالجسم ظهوره العرض يلزمه ، والذي بالإرادة اجتماعه قواها تمسكه ، والذي يؤلفه وقت يفرقه وقت ، والذي يقبضه غيره الضرورة تمسكه والذي للوهم يظفر به التصوير يرتقي إليه ، ومن أواه محله أدركه أين ؟ ومن كان له جنس طالبيه كيف ، إنه تعالى لا يظله فوق ولا يثقله (يحمله) تحت ، ولا يقابله حد ، ولا يزاحمه عند ولا يأخذه خلف ولا يحده أمام ، ولا يظهره قبل ولا يفوته بعد ولا يوجد له كان ، ولا يفقده ليس (عدم) ، وصفه لصفة له ، وفعله لا علة له ، وكونه لا أمده ، تنزه عن أحوال خلقه ليس له من خلقه مزاج ولا في فعله علاج ، باينهم يقدمه كما باينوه بحدوثهم ويستمر الحلاج في مثل هذا التنزيه لله سبحانه ، فهو لا يشبه الكائنات في شيء ولا يشبهونه في شيء ، تفرد بذاته وصفاته عن ذاتهم وصفاتهم فهم حادثون ، وهو قديم . ليس كمثله شيء " وواضح أن الحلاج يستخدم في كلامه السجع وبذلك لاعم بين أسلوبه وأسلوب الكتابة في أواخر القرن الثالث وأواخر القرن الرابع ، وربما كان في إثاره هذا الأسلوب أن يرتفع إلي الطبقة الخاصة محاولا أن يؤثر فيها ، مودعا فيها ما يفسح للرمز والتأويل

(١) د. شوقي ضيف عن رسالة القشيري ص ٢١ ط مصر ١٣٤٦ هـ .

(٢) أخبار الحلاج ص ٣١ ، د. شوقي ضيف ص ٥٣٣ .

مذيل الكتاب

الموضوع	ص	الموضوع	ص
مقدمة.....	٥	في الفخر للمعري.....	١٠١
الفرض من دراسة النصوص	٦	تحليل وتعليق.....	١٠٤
مدخل في قيام الدولة العباسية	٧	من ألوان النثر الفني.....	١١٠
الشاعر الطموح: المتنبى.....	١١	أولاً: المقالة والرسالة.....	١١٦
لماذا لقب بالمتنبى؟.....	١٤	تعريف المقالة والرسالة.....	١١٧
شاعرية المتنبى.....	١٧	مدارس الكتابة الفنية.....	١١٧
مقومات الشاعرية.....	١٨	ابن العميد.....	١١٩
الأسباب الفنية التي خلقت		في اللوم والتهديد لابن العميد.....	١٢٠
شعر المتنبى.....	٢١	تحليل وتعليق.....	١٢٢
أبو الطيب المتنبى في مصر.....	٣١	أبو عثمان الجاحظ.....	١٢٤
المتنبى بين مدح وهجاء كافور:		قوله: في البيان والتبيين.....	١٢٥
يمدح كافوراً.....	٣٤	الصاحب بن عباد.....	١٢٦
تحليل وتعليق.....	٣٦	قوله من رسائل العهود.....	١٢٧
هجاءه لكافور.....	٤٢	ثانياً: فن المقامات.....	
صدى الهجاء.....	٥١	تعريف المقامة.....	١٢٩
أطوار شاعرية المتنبى.....	٦٦	المقامة البغدادية.....	١٣٠
أبو فراس الحمداني.....	٧١	المقامة المضربة.....	١٣٤
تحليل وتعليق.....	٧٨	ثالثاً: الخطابة.....	
قصة الأسر.....	٨١	تعريف الخطابة.....	١٣٩
أبو الحسن الشريف الرضي.....	٨٨	مقومات الخطبة الناجحة.....	١٣٩
له في الغزل العفيف.....	٨٩	داود بن عبد الله خطيب	
تحليل وتعليق.....		بني العباس.....	١٤٠
الأفكار العامة.....	٩١	شبيب بن شيبه.....	١٤٠
التنقيد الأدبي.....	٩٣	مكاتبة الوعظ والمصوفين.....	١٤٢
الشاعر الفيلسوف المعري.....	٩٦	من أخبار الحلاج.....	١٤٣

